على الضفّة
الأخرى
رواية
بإعداد
فريق روائيّون

رواية

على الضفة الأخرى

ما وراء السطور

الكاتبة:هبة خالد اشقيفي

الكاتبة:أية محمد حلمي

الكاتبة:سجى غنام الهويدي

تنقيح

. سجى علي خليل أبو الخل

. هبة خالد اشقيفي

مدير الفريق :محمد شعبان

فريق روائيون

الإهداء :

إلى الصديقات اللواتي أحببْننا بصدق
جعلنا نرتقي ونصعد حتى نبلغ غايتنا
إلى تلك التي شاركتني حلمي ونظرناه
معاً حتى الغدّ.

إلى اللواتي اجتمعنَ بقربنا نتيجة
دعوات أمهاتنا الصادقة بِصّحبةٍ الصّالحة.

المقدمة

إذا الشَعبُ يوْماً أرَادَ الْحَيَاةَفلا بـدّ أن يسـتجيب

القـدرولا بُدَّ لِلَّيْلِ أنْ يَنْجَلِـي وَلا بُدَّ للقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِـر

وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الْحَيَاةِتَبخَّرَ في جَوِّهَا وَانْدَثَر

إذَا مَا طَمَحْتُ إِلَى غَايَةٍ رَكِبْتُ الْمُنَى وَنَسِيتُ الحَذَر

وَلَمْ أَتَجَنَّبْ وُعُورَ الشِّعَابِ وَلا كُبَّةَ اللَّهَبِ المُسْتَعِر

وَمَنْ يتهيب صُعُودَ الجِبَالِ يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَر

حـيّ الفِـردوس عبـارة عـن مدينـة مصـغرة لـديها الكثيـر من الأسواق والمعامل والمدارس.

كمـا أن القـدر قـد جمـع بـين الفتيـات الأربـع شـغف ورزان وأمل وبراءة.

إذ انتقلـت أمـل إلـى حـيّ الفـردوس مـع عائلتهـا عنـدما كانـت فـي الثالثـة مـن عمرهـا والتحقـت فـي مرحلتهـا الابتدائيـة فـي المدرسـة التـي كانـت علـى طريـق مَعمـل والـدها عـادل حيـث يوصـلها كـل يـوم وتطمـئن والـدتها عَنها،

عن طريق رفيقاتها المعلمات اللواتي سَيُعلمْنَ ابنتها.

وهنـاك شـاءت الأقـدار أن تتعـرف أمـل علـى الصـديقتين شـغف ورزان حيـث منحـتهم قلبهـا وتقـدموا لهـا بأرواحِهم.

وبعـد عـامين تقريبـاً انضـمت بـراءة لمجمـوعتهم فتشـكلت بيـنهم روابـط قويـة صـعبة التفكـك إذ جمعهـم الحُلم العظيم والفِكر السليم.

لكـنّ أمـل كثيـراً مـا كـان يغضـبها تقـارب منـازل صـديقاتها وبُعد منزلهـا عـنهم فهـم بجانـب بعضـهم معظـم الوقـت أمـا هي فلا شقيقة لها تؤنسها ولا أقاربٌ من ذات عُمرها.

إلا أنها تملك قلوب صديقاتها فكل الأحداث التي تجري معهم بعد دوامهم سيسردونها لأمل في اليوم التالي

وهي تستمتع وتندفع لتعرف عنهن أكثر وأكثر..

عند شروق الشمس، الجميع يستيقظ بنشاط مع الدعاء الذي لا يُفَارِق قُلوبهم بأن يبقوا تحت حماية اللهوستره وألا يَمَسّهُمْ ضُرٌ من الأعداء، وها هنّ العظيمات يُكْمِلْنَ واجباتهنَّ كأمٍّ وزوجةً على أكمل وجه

وأصوات خطوات الأطفال تتوالى مع الضحكات.

ومنازلٍ مَطليةٍ بالحب.

وأيضاً منزلٍ تسكُنه فتاة بعمر الربيع.

لزهرةٍ في ربيعها الخامس عَشر تجتمع بها معاني الحُبّ والنشاطِ. لم يقتصر أمَلنا على اسمها بل كانت تَحملنا وتحمل خيباتنا وتزهو بنا بزهرة الحياة، وكأنه قد سُكبَ كوبٌ من القهوة البُنيّة في عَيّنِيهَا، كانت الجدار الحامي من خَيْبَات الحياة، لا تَظلم ولا تجحد، صاحبة الأحلام العفويّة والقلب النقي، لطالما كانت تطمح بأن تكون دواءاً لكل جَرح، كان الكفاح والنضال سابقٌ لاسمها نحو حُلمها.

ولكنه المشفى باهظ الثمن والجهد كان عَلى قلبٍ هَوى حُلمه.

وفي المنزل الآخر كانت صاحبة العقل الكَبير، لزهرةٍ أوشكت على إنهاء ربيعها الخامس عشر، رزان صَنيع حروفٍ تُقيم الحُروب بعقولنا، هَوت ولا زالت تهوى القَلم والورقة، تَكتب وتَقرأ، تَكتب لنقرأ، تَلقي على من أحبت شِعرها فتزيد من هَواها حُباً لِشعرها، وفخراً بها

ولكن. . .

دائماً ما تدور أحلامنا حولنا ولكِن على أبعاد منها، تحاول إيصال فَكرتها للناس أجمع أنها تمتلك حلماً آخر، ولكن هل من مُستمع؟

لم يَكُنْ اليأس والمَلل في قاموسها، وكأن عينيها تقول في كُل مرة لا لليأس يا زهرتي فغداً سنصل إلى القِمة.

وهناك منزل شغف في عامها الخامس عَشر، تملك شَغف عَقلا يُعتبر علاج طَبيعيّ للآخرين، دائماً ما تلجئ للعلاج عن طريق اَلطُّرُق التقليدية، وكان دافعها مَهارة جدتها ووالدتها، وتُعينها اَلْأُخْرَيَات على ذلك، كُلما نَظرت إلى اخضرار عينيها

ترى جوهرةً تخبرك بأنك تستطيع أن تفعل أي شيء.

وفي المنزل الأخير تعيش براءة التي تخطت الرابعةعشر من عمرها، أصغر الزهرات وأجملهن

ولَكنها تخشى الآخرين وكلامهم بطريقة التنمر، لم يَكُنْ لديها جدار تحتمي به غيرهنّ.

وكانت قد ورثت من غزالٍ عينيها.

تُخبرك بأن العَالم سَيَعُودُ بريئاً كَما تنظر إليه دائماً.

وحين ذهابهن إلى المدرسة، بحماسٍ لتلك الليلة التي تَنْتَظِرهُنَّ بترقّب.

مُراقبة النجوم وثرثرة الأصدقاء المُعتادة.

في كُل نهايةٍ من الأسبوع، تأتي هذه الليلة للتخطيط للمستقبل واسترجاع الذكريات والأمل بتحقيق الأحلام البريئة السامية.

عِند حُلول المساء، جَلَسْنَ سويّا يُرَاقِبْنَ النجوم، والنجوم تقهقه إعجابهن بأربعة نجماتٍ على الأرض.

وها بَشريط الذكريات يمرّ...

قَالت رزان بصوتٍ ضاحك: أتذكرون عِندما تناولت بَراءة الشكولاتة الخاصة بأمل؟

فردت براءة بخجلٍ وضحك طفيف: قَد غلبني جُوعي ولم أرَ غيرها أمامي.

ردت أمل بغضب: كاذبة! لقد كان هناك الشوكولاتة الخاصة بشغف أيضاً.

ردت شغف مُستمتعةً: لا كنتُ قد سَبقتها خَبثاً وأكلتها.

تبادلن النظرات والضحكات.

رزان: وعندما لم أقم بواجبي المنزليّ، جاءت المعلمة كانت تمر لتقول لي أين واجبكِ يا رزان؟

لم أجد حجة مقنعة فبدأت أتلفت بأنظاري وجدتُ حَلاً لأمل، ونظرت لي أمل بإيماءاتها أن أعطيها إياه وأقول لها حجةٍ مني، وأنا أتخبط توتراً ولم أفهم إشاراتها، فتوقفت أمل قائلةً: أعطِها واجبي أيتها الحمقاء، نظرت لها المعلمة بغضب وأشارت لها بالخروج خارج الصف، وتوقعت وقتها أن أمل سترتكب بي جريمة

أمل بصوتٍ ضاحك: وحينها بقيت خلفكِ للانتقام.

شغف: نعم تذكرت ذلك اليوم الذي ضحكتُ فيه حتى سالت دموعي.

براءة: في الحقيقة يا أمل كُنتِ ستعاقبين في الحالتيّن.

أمل: لِمَ يا صغيرتي؟

براءة: لأنكِ لم تقدمي واجبكِ أيضاً.

تبادلوا النظرات والضحكات

رزان: عِندما كُنا نَتجهز ليوم ميلاد براءة، وكانت الكاتو من شَغف، وإذ بشغف تتصور جوعاً فقامت بأكله.

"سادت السعادة وتعالت الضحكات في تلك الليلة".

شغف: أتخيّل كما لو أننا حققنا ما نُريد.

أمل: وأنا أرى نفسي هناك مُديرة في المشفى.

رزان: لا أنا من سأكون المُديرة

براءة: ولمَ لا أكون أنا؟

ردت شــغف بضــجرٍ وطفولــة: أيــا ليــت ذاك تخيّــل لــم يأتِ.

وتعالت الضِّحكات.

على الضفة الأخرى

حين يصير الحلم أهلاً

أمل

في يومٍ ماطرٍ عاصف هبت الرياح جارفةً سموم الحرب معها لتهتك الحرمات وتهلك كل ما على هذا الحي من ناس ومبانٍ وأحلام

بدأت تلك الحرب المستعِرة بأصوات مدافع بعيدة فقالت جدتي بكل حرصٍ على كلماتها ونبرتها لتهدئ من روعنا فالجذع أخذ منا كل مأخذ لم نكن نسمع كتلك الأصوات طيلة عمرنا

- لا تجعلوا الخوف يتمكن منكم فما أتوا إلا طلباً لذلك وأذكر قبل هذا كان هناك بعض الأزمات السياسية إذ يطلقون النار ويرهبون الناس وبعد ذلك يتراجعون

أكمل أبي علي الوتيرة نفسها: لا داعي للخوف فالصوت آتٍ من بعيد ربما هناك عصابة سرقة تتجول في الأحياء هروباً من قوات الأمن ويلاحقونها سيعثرون عليهم على أية حال

نظرت في عيني أبي ومن ثم جدتي فرأيت الخوف والقلق وراحت الأصوات تعلو وتقترب مصطحبةً معها

روائـــح الرصـــاص التـــي عبقـــت فـــي المكـــان ففســـد الأكسجين الذي

نستنشـقه وشـعرت وكأنـه حديـد تـم وضـعه علـى صـدري فمنعني من التنفس لساعات

وبالتـــدريج أُضـــيف للمشـــهد كلـــه صـــوتُ هـــدم المبـــاني لتتحول إلى رُكامٍ شنيع المنظر.

نـزل أبـي رغـم إلحـاح أمـي عليـه بـألا يفعـل ريثمـا تهـدأ الأصـوات ويخـف الخطـر بينمـا كنـت أحـاول أن أتصـل علـى جـدي ومـن ثـم صـديقاتي لكـن الهـاتف لا يعطـي إشـارة فقـد أوقفـوه ذهبـت إلـى هـاتف أمـي الجـوال لأجـدهُ مفصـولاً مـن الشـبكة التـي حاولـت مِـراراً وتكـراراً فلـم أنجـح ورحـت أقـول لقـد قطعـوا وسـائل التواصـل كـان فكّـي الأسـفل يتحـرك بارتجـاف فحسـبته لـيس منـي لحظـة تكلمـي ثـم نـزل أبـي ليطمـئن علـى مَـن تبقـى مـن الجيـران والأقـارب أمـا جـدتي ثُريّـة فقـد خفـق قلبهـا بشـدة واضـطرب خوفـاً علـى عمـي زيـاد وعائلتـه وجـدي الـذي بقي معهم في البيت.

الكـل هنـا فـي خطـرٍ تـام كـان الوضـع مأسـاوي ومرعـب للغاية.

أبـى والـدي أن يمكـث بـين النسـاء كأنـه مـنهم كمـا خشـي أن تصـاب جـدتي بمكـروهٍ إثـر خوفهـا علـى مَـن تـركتهم وراءهـا فـي منـزلهم فنـزل بـين الرصاصـات التـي تسـتهدف شـارعنا والقـذائف التـي تليهـا راح متجهـاً نحـو

بيت جدي ليطمئن عليهم ويعود بهم إلينا فتسكن مخاوف جدتي التي بدا عليها التوتر والإرهاق بسرعة

وفي اللحظات الأخيرة زادت الألوان التي يُضاء بها منزلنا فلم نعد نميز بين الرعد والقصف تداخل كل شيء ببعضه ومرت ساعات وكأننا في كوكبٍ آخر لكم تمنيت أن يكون حلماً مزعجاً وبعد ثوانٍ سأفيق من نومي لأتناول كأس الماء بيدي التي ترتجف وأغير الاتجاه الذي استقبلته وأنا أستعيذ بالله فأعود لمضجعي وأقول أضغاث أحلام لا أكثر.

لكنه الواقع للأسف ارتفع الصوت فحسبته استهدف منزلنا لكثرة الرصاصات على نوافذنا والبراميل التي سقطت في الشارع الذي نسكن فيه

خافت أمي أن يقصف بيتنا فقد توالت الضربات وكانت علامة على الشر القادم لا محالة فطوبى لمَن نفد من هذا الخطر

حزمت لنا أغراضنا في حقيبة سفرٍ متأهبةً للخروج إلا أن أبي ما زال خارجاً ولم يعد حتى الآن ومن آخر الاحتمالات وأصعبها أن نخرج بدونه

الأمطار تهطل بغزارة والجو شديد البرودة فشعرت بِيَدِي الحمراوين أنها ستنقطع خوفاً وبرداً واحتضنت إخوتي بين ذِرَاعَيَّ وأنا أكرر المُعَوذات على لساني

راحت أمي تندب ويحي كيف أتركه يخرج ماذا عساه يفعل الآن في ظل هذا القصف الوحشي؟؟

فقالت جدتي بصوتٍ أليم: كُلّ اللوم لي وحدي ما كان عليّ أن آتيكم وحدي دون البقية لو كنت في منزلي لكان الوضع أفضل بكثير إذ أكون مطمئنة على كل مَن في بيتي وأنا بينهم فإما عيشةٌ للجميع أو ميتةٌ لهم وأظن عادلاً ما كان ليخرج من بيته لولا تلك الملامح الحزينة اللعينة التي رُسمت قسراً على وجهي.

وما كان لأمي المسكينة التي كان اختبارها في أعز شخصٍ على قلبها إلا أن تطيب خاطر جدتي التي تملّكها انهيار كامل بكلامٍ لين ذي نبرةٍ خفيضة

لا يا أمي هذه مشيئة الله التي لا مردّ لها فقدر الله وما شاء فعل حاشا أن نعترض على حكمه وما أدراكِ أنتِ بهذه الملحمة التي ستشهدها أحياؤنا من قبل وما تنبأ بها أحدٌ قط حتى كانت.

ورغم خوفي لم أنسَ مسؤوليتي وواجبي اتجاه إخوتي الصغار فاحتويتهم في غرفة داخلية مغلقة حيث لم يكن لها أية نافذة ولها بابٌ صغير تسودها العتمة والرهبة فكانوا يسمونها لإخوتي وأولاد عمي حين يقومون بزيارتنا بمخبأ الفئران رغم أنها لم تُزر من قِبل أية فأرة لكنها الكناية التي يختارونها ليهددوا الأطفال بها حين يكثر شغبهم.

وعندما أمنت على إخوتي وأخذت بالأسباب ثم توكلت على الله واستودعتهم عند مَن لا تضيع ودائعه.

تسـلّلتُ خلسـةً لنافـذتي ولـم أعـرف تلـك الشـجاعة والحماقـة التـي تسـكنني قبـل ذلـك ولكننـي كنـت علـى اسـتعداد أن أفعـل أي شـيء لإطفـاء النـار التـي وقـدها أبي بخروجه وراحت الأفكار تتصارع بعقلي

ولا بـدّ أن أراه مـن نافـذتي التـي لـم تسـلم مـن ضـرباتهم الخبيثـة لكننـي لـم أرَ أبـي أو أي شـيء يـدلني علـى خبـرٍ منه.

بـل رأيـت شـاحناتٍ كبيـرة ولمحـت جارنـا وامرأتـه وصديقة أمي وزوجها

شـهدت النـاس وهـي تتكـدس فـوق بعضـها ب الحافلـة وهناك مَن حمل حقائب وآخر من لحقه بالأولاد

ذهبـتُ إلـى أمـي وجـدتي معهـا فـأخبرتهم بمـا رأيـت مـن نافـذة غرفتـي وأخبـرتهم بمنظـر الحـافلات الخضـراء التـي امـتلأت بـالراكبين حتـى الشـبع ولـم أنتـهِ بعـد حـين طـرق البـاب بخـوفٍ وعنـف، دقـات سـريعة تتالـت فيمـا بينهـا فاسـتعجلت أمـي فـي فتحـه لعلّـهُ والـدي عـاد مـن عراكٍ طويل لكنه من طرف واحد فقط

علـى كـل حـال لـم يكـن أبـي الطـارق بـل كـان عمـي زيـاد وبيـده يمسـك هاتفـاً لا سـلكياً تتوافـد الأخبـار إليـه مـن خلاله

زياد

عندما سمعت بالأخبار السيئة عن القصف القائم على حي الفردوس من أوله في السوق وصولاً لشارع أخي عادل هرولت مسرعاً كالمجنون الذي فقد عقله قبل دقائق

أركض قليلاً ثم أشرد في الطريق

كانت قدماي تأخذني دون إرادةٍ مني أو تدبير وأنا أسير حسب ما تفرضه عليّ فقد حفظتْ الطريق عن ظهر قلب

خلال الطريق فكرت بأمي التي تزور ابنها بهذا الحي الذي استُهدف للتو ولا بد أنهم قلقوا وتأزمت أحوالهم وربما....

كل هذه الأفكار الشيطانية راودتني

مشيت مسافاتٍ من الخوف والحزن شعرتُ بالهزيمة تنبأت بحربٍ تمر بالجميع وتقتلع جذورهم

وصلتُ إلى منزل عادل هائماً على وجهي راجياً أن ألقاهم أحياء ولا أمل لي غير هذا

بعد أن قامت يدي التي شعرت بأنها بُترت فتحركت وحدها بطرق بابهم الكبير الذي أخافني حجمه وأراحني قليلاً أنه ما زال موجوداً

فتحت لي ليلى زوجة أخي بعد ثوانٍ ثقلت على قلبي فكدت أكسر الباب بعد أن رأيت باصاتٍ خضراء في شارعهم والناس تتوافد إليها وتحمل أغراضها لتنجو من هذه الحرب اللعينة فبادرت بلهفة غريبٍ نزل بين أصدقائه

-كيف حالكِ يا ليلى؟ أمي أخي الأولاد أكلكم بخير إن شاء الله؟

-نعم يا زياد نحن بخير ولكن....

وسكتت بعد ولكن فشعرت بوخزةٍ تسكن أحشائي وتوقعت المصيبة التي تنتظرنا

فقلت لها هيا تجهزوا لتخرجوا مع الناس فالأعداء تحشد وتعزم على هدم الحي بالكامل فقد كان هدفهم للأسف وها هم يهيّئون الباصات لتقلّكم إلى مدينة أخرى آمنة

أنا أتحدث وهي تبكي فظننته خوفاً وحسب إلا أن أطلت أمي من ورائها بوجهها الشاحب وعينيها الباهتتين لتخبرني بغياب أخي عادل الذي خرج ليطمئن علينا وقد تضاعفت الهموم على قلبي المتعب

توترت وزادت حدة نبرتي ماذا كيف له أن يخرج بين القذائف الرزيلة والله لا يفعلها إلا الأحمق وتساءلت كيف تمكن من تجاوز الحدود والحي مغلق إلا من الباصات التي تنقذ الناس ولو لم أزحف على بطني

لما استطعت الدخول لا بأس أمي فلتسبقونا مع الناس ونحاول اللحاق بكم فور إتاحة الفرصة

أما أمي التي تعلمنا منها الصبر والمجاهدة فكانت كعادتها تصرّ على البقاء ريثما نجتمع ونخرج معاً إن ساءت الأحوال أكثر

فما كان لي إلا أن أقنعها بطريقتي

حين قلت: حَسبُكِ يا أماه تلك الأطفال ما ذنبها لنعرضها للخطر وتحسب الأيام أو الساعات الباقية لموتها وقد ألهمنا

الله طريقاً لإنقاذها كما أن الناس في الأسفل يا أمي يركبون بالباص وما بوسعهم أن ينتظروا اجتماعنا ونحن مشتتين هنا وهناك فلتتحملوا ساعاتٍ فقط وإن كان لنا نصيبٌ في العيش ف سنلحق بكم بإذن الله وربما أيضاً لا نحتاج الخروج إذ تعودون أنتم

وقبل أن تجيبني إذ لا فائدة في المحاولة معها خرجتُ بالأولاد من غرفتهم المظلمة الباردة قاصداً الباص السادس على الترتيب

إذ انطلقت الخمسة الأولى قبله

ونزلت أمي مع أمل وليلى بعد أن ارتدوا ثيابهم المغبرة والممزقة إلا أنها تستر والحمد لله

صعدوا أمام ناظري فالتفتُ إلى السائق وسألته ما وجهتكم يا عماه؟

فأجابني أخبرونا إدلب وهم يسكنون حيث شاؤوا ظننت وقتها أن إدلب هذه عبارة عن شارع واحد أو حي يحوي أزقة معدودة فمجرد أن ألتقي بعادل سأقوده إلى إدلب مارين ب بستان القصر حيث بقي أبي مع عائلتي فنصحبهم معنا ريثما تهدأ هذه الحرب الضارية كما تركت السائق وطبعتُ قبلةً حارة على يد أمي كادت أن تحرق جلدها المتجعد فاجتمعت كل أنفاسي الملتهبة فيها وهمستُ في أذن أمل ابنة أخي والتي كانت محط أملي بالمستقبل الذي حلمتُ به و

حُرمت منه فطلبتُ منها أن تعين مَن معها وتكون فيهم كما كان والدها.

فبشرتني بابتسامتها المشبعة بالحزن والمقاومة معاً وقالت أنا أقوى مما تظن يا عمي فكما تعرفني البوصلة لقلب جدتي كما أمي أما أخوتي فأنا عندهم بمنزلة الأم الثانية لا تقلق من هذه الناحية أسأل الله أن يعجل بالفرج ويطمئن قلبنا بلقائكم مجدداً سالمين

وانطلقوا وأنا أراقب ابتعادهم

أمل

حلقات بحثٍ لا نهائية في خزانتي التي أُطيحت قبل ساعةٍ على الأرض فتفتّحت أبوابها وتكسّر صندوق مجوهراتي فمزّق الملابس وقد تكدّستْ فوق بعضها والناس تنتظر والقذائف تنتشر في الأنحاء لا أدري

كيف وقعت يدي على شالِ أمي الأسود فرميته على أكتافي وحمدتُ الله على الشتاء الذي سترني برده بالملابس الصوفية ورميت حجاباً أزرقاً قد تحول للسواد من الدخان والغبار التي صاحبته

نزلتُ الدرج وشعرتُ بقلبي يهوي كلما اقتربت من الشارع أكثر وقد سبقتني أمي مصطحبةً معها جدتي

جلستُ إلى جانب أمي وأخذت أخي الذي بلغ عامه الأول قبل أربعة أيام من يدها فوضعته على فخذي الأيسر وقد رفعت حقيبة الثياب على الفخذ الأيمن

لاحظتُ دموع أمي التي حاولتْ كثيراً كتمها فوضعت يدي على كتفها وقلت

هوني عليكِ يا أماه لعلّهم قادمين في الباص اللاحق الذي يلي هذا وعلى الجهة الأخرى كانت جدتي ثُريّة متكئةً على عكازها، فنظرتُ على عدسات نظارتها المشبعة من فيض دموعها وقد جلس في حضنها أخي جاد ذاك الطفل الذكي كثير الحركة والكلام حيث راقبته وهو يرسم بيتنا على اللوح الزجاجي المثبت مجاوراً لكرسيه وساعده في ذلك البخار الذي اتجه من فمه نحو لوحه الذي يرسم فيه آخر محطة لنا على هذه الديار كما هو واضح حتى لحظتنا تلك فكانت لوحة مثيرة للألم والإعجاب معاً خطها بإصبعه الصغير وفيض إبداعه

تمنيتُ لو أنني للحظة أسمع اسمي يُنادى من جماعةٍ لألتفت إليهم وأجد أبي وعائلة جدي ابتداءً منه وانتهاءً بأيمن ابن عمي زياد.

أما صديقاتي فقد تألمت لفراقهم وخشيت أن يمنعني القدر من اجتماعنا مجدداً ولكن الخوف من طرفهم قليل لأن العدو دخل بالتدريج السوق أولاً ومن ثم شارعنا و.....

قتله الله لا أعرف إن كان سيكمل سيره وفساده أم أن الله كتب لبقية الشوارع الأمان؟

زياد

بعد أن ابتعد الباص واختفى حيث لم تعد عيناي قادرة على رؤيته ذهبت لأبحث عن أخي عادل ومرت أيام من البحث والقصف مازال مستمراً إلا أن جاءت العناصر وألقت بالجثث أمامنا في وسط الشارع فعرفته من بين آلاف الضحايا وذلك بلحيته الطويلة وما تمكنت من تمييز أياً من ملامحه التي تهمشت فجهلتُ مظهره باستثناء بنطاله الأسود الذي انعكس سواده على دمه الأحمر وربما تحول احمرار دمه لسوادٍ لتأخيرنا في دفنه.

والذي أكد لي هويته ذاك الحذاء البني غليظ الساق الذي طلبه مني بإلحاحٍ شديد على استعارته فأهديته إياه واشتريتُ آخراً

حيث أبى هذا الحذاء أن ينفصل عنه رغم إصابته القاتلة

وقد ضيقوا علينا الحصار إذ لا مجال للخروج من حي الفردوس أو الدخول إليه فكدنا أن نموت جوعاً أو اختناقاً من روائح الكيماوي والجثث التي كانت سبباً في موت أغلب مَن تبقى في هذا الحي

أمل

ذهبتُ أتأمل وجوه الناس في الباص التي بدت غريبةً جداً حسبتهم من عصرٍ آخر حتى الذين عرفتهم رأيتهم غرباء بنظراتهم الساهمة ودموعهم التي تتأرجح في المقل.

أخذت نبضات قلبي مجرى آخر فراحت تنزف مع كل سيمفونياتها حين بدأت الفتاة اليتيمة بغنائها

موطني.... موطني

الظلام والدمار.... والخيام والحصار في رباااك... في رُباااك

الأموات والتهجير والأصوات بالتفجير

في هواااك...في هواااك.....

قاطعها رجلٌ ثلاثيني أصلع الرأس لا رموش له ولا شارب وكأن الشعر حاربه من فترةٍ طويلة

-كفى بالله عليكِ كفّي عن تعذيبنا سكتت في حين أكملت دمعاتها النشيد الوطني الجريح أما جمال فقد بانت عروق عينيه وكادت أن تُفقأ وأنا أراه يتألم كان إحساسي ينبهني ثمة شيء غير الظاهر يطيح بهذا الشاب وضع يده على رأسه وتحسس شعره الغائب منذ زمن وراح يهذي بقوله

سرطان بالدم ومثله بالوطن أما الأول فقد سحق جزءاً من صحتي وشعري ورئتي بالإضافة إلى الكثير من الحياة وأما الثاني فقد كانت له الحصة الأكبر لم تكن القسمة عادلة بينهما على كل حال هنيئاً لهما جسدي وروحي معا وفي آخر جملةٍ له شخصت عيناه وابيضّتْ شفتاه وأخذ جسده لونه الأصفر فما كان عليّ إلا أن أضع أخي غسان في حضن أمي وأركض إليه أمسكتُ يده ولأول مرة تلامس يدي يد شخصٍ أجنبي ولأول مرة أشهد شخصاً يحتضر أمامي وكأنه خبأ برودة عدة فصول شتائية متتالية في يده لو أنني

ألمس الجليد لما تصدعت يدي مثلما حدث مع يده رفعت له السبابة ونطقت الشهادتين نيابةً عنه فقد انتهى أجله قبل أن يفعل وألقيت بشالي الأسود عليه وعلى أية حال لا أحتاجه على أكتافي بعد أن أصابني ما أصابني من برد الشتاء وصقيع الخوف وزمهرير التهجير والبعد

وعدت إلى الكرسي المجاور لأمي فأخذت أخي لأعيده إلى حضني وأمسكت يده الصغيرة بأصابعي المتجمدة وقلبي المتوهج

ثرية

وأنا في الباص إذ ودعتُ زياد وفارقت عادل وزوجي فعرفت من ذلك الحين أنه الوداع الذي لا لقاء بعده.

وراحت ذاكرتي تضج بالذكريات التي تؤلمني باستدعائها حيث كان لي مع هذا الطقس مراسم عائلية دافئة إذ أستيقظ وأبو زياد مع أذان الفجر فنتوضأ ونصلي جماعةً وأحضر القهوة لنشربها سوياً مع صوت فضيلة الشيخ ماهر المعيقلي وفي كل مرة يكرر أبو زياد قوله ما أجمل صوته إذ يذكرني بالجنة فأشتاق لها كما يفعل مع النار فأخشى أن أفعل ما يقودني لها.

فأجد بصوته الأمان والقلق معاً.

فأجيبه: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها

وخير الخطائين التوابين

وبعد ذلك يذهب بدوه لإيقاظ الأولاد أما أنا فأكون قد حضرت السحلب اللذيذ الذي عشقه كلٌّ من عادل وزياد فأجلب الحليب الطازج وأطهوه جيداً

فنلتف حول المدفئة التي تبعث الحرارة والحنان ونقصّ على أولادنا الحكايات

أمل

استغرقت رحلتنا بالباص ما يقارب تسع ساعاتٍ فتركنا حيث الحدود الفاصلة بين مدينتي حلب وإدلب وأكملنا سيرنا مشياً على الأقدام كيلو ميترات عديدة وقد ثقل علينا الحمل فرميت حقيبتنا وخلعت حذائي لأحمل أخي حسام إذ يرهقه المشي في سنواته الثلاث أما أمي فلم تدع غسان أبداً وجدتي كان من نصيبها جاد فاستندت عليه وراحا يتمايلا يميناً ويساراً حيث أعياهما طول المشي دون استراحة

وما سمعت إلا جاد ينادي سيارة يا أمل سيارة يا أماه الفرج أخيراً

أشفقت عليه بسن السبع سنوات وقد تحمل عناء السفر وأدرك ما نمر له من صعوبة وهلاك

التفتنا إليه وقد سبقناهما لنرى سيارة بيك آب فيها عشرة أشخاص على أقل تقدير ف نادانا السائق اصعدوا لا بأس عليكم لا يمكنكم الوصول مشياً

نهضت بأخوتي الثلاث وساعدت جدتي كما أمي ثم لحقت بهم.

وقادتنا السيارة إلى مخيمات اللاجئين في إدلب

وقد علم الله بحالنا وأحسن تدبير أمورنا فهيأ لنا منظماتٍ خيرية إنسانية دعمتنا بالملابس والمواد الغذائية وما يلزمنا من الأغراض لتقينا برد الشتاء إلا أن برد اللجوء لا سبيل لاتقائه.

في بداية الأمر عانينا من القلة والشعور الدائم بالذل والغربة كما عانينا من صعوبة التأقلم مع وضعنا الجديد حيث أنني لم أرَ تراباً من قبل إلا في حوض مدرستي أما بعدما آلت إليه حالنا فصرت على التحامٍ تام مع التراب والماء الذي شكل جبلة طينٍ حمقاء لا أعرف لها علاجاً حين تعلق بأقدامي وأقدام أخوتي الصغار

كما آلمني حزن أمي وجدتي الذي جهلت كيفية التعامل معه فوجدتني سجينة الحرب والخيام أسيرة المخاوف والمهالك

وبعد أسبوعين بدأ الليل يفرش سواده في كل مكان وذلك بقدوم العواصف الرياحية التي اقتلعت خيمتنا من جذورها والكثير من الخيام معها فما كان بالإمكان سوى أن تذهب جدتي مع أخوتي إلى خيمة بعيدة بعض الشيء أكثر تثبيتاً بالأرض من تلك التي هوت مع الهواء الجارف

أما أنا وأمي فعلينا أن ننتظر حتى يصل الخبر إلى المنظمة المسؤولة عن خِيّامِنا

لسوء الحظ لم تنجبي ولدكِ الأول ذكراً ولو فعلتِ لكان في مثل المواقف تلك سنداً يحمينا من التشرد

والضياع هكذا قلتُ لأمي حين كانت تنفخ بكلتا يديها علّها تدفأ بتلك العملية

فابتسمت لي ابتسامةً شاحبة وهي تقول

ما أوسع خيالك ربما لو حصل هذا لكان حاضرناً مغايراً لما هو عليه الآن

وسكتت لدقائق ثم قالت تُرى كيف هو عادل أحيٌ هو أم....

ليتني لم أدعه يخرج بمثل هذه الظروف

فأخبرتها بخير يا أمي هكذا أشعر

وكانت كذبتي البيضاء تلك للتخفيف عنها فقد أرهقها الخوف

أمي أتشعرين بالبرد إليكِ قبعتي وأيضاً حذائي مناسبٌ لقدميكِ وداخله فراءٌ يبثّ الدفء رغم اتساخه إلا أنه مفيد

- لا يا حبيبتي دعيه، لم تبرد أطرافي فأظنها اعتادت هذا الجو ولكن هذا لم يعتد بعد ولا أظنه سيعتاد يوماً

وأشارت بكفها التي تهتز إلى قلبها المشتعل بالنيران

-علينا بالصبر يا أمي انظري حولك يميناً ويساراً فهناك مَن ذاق من لوعة الحرب ما لا تطيقه أنفسنا

ولا أرى حاجةً للاعتياد فالفرج قريبٌ يا أماه قريب كقربي لكِ أو أكثر

الصبر فقط الصبر هو ما نحتاجه بإلحاح

-أبـاكِ يـا أمـل هـو مَـن كسـر قلبـي أكثـر مـن الغربـة والعراء والله شاهد على قولي

كمـا أن جـدتك تعـذبني بحزنهـا الـذي لا يصـرفه إلا لقائهـا مع مَن فارقت

أخشـى عليهـا إن بقيـت علـى حالهـا هـذا مـن المـرض أو .....

- لا يـا غـاليتي بـإذن الله لـن يصـيبها مكـروهٌ ونحـن معهـا نسـاندها ونقـف إلـى جانبهـا أيـامٌ فقـط وسـنعود ويُقـال أيضـاً أنهـا سـتتحول لـذكريات نقصـها علـى البقية ونضحك لمواقفٍ شتى فيها

إنه امتحان الله يا أمي لصبرنا فكيف تحبين أن يجدنا

ألا تـذكرين كلامـك حـين مـرض عمـي زيـاد وانهـارت حالتي لتقولي ما أقوله الآن

- بلى يا حبيبتي امتحانُ الله هذا

وسيلقانا إن شاء الله صابرين قانتين محتسبين

مـا أجمـل الأمـل ومـا أعظمـكَ يـا الله إذ وهبتنـي أملـي فأنـتِ يـا أمـل تـذكريني بمـا أنسـانيه الألـم أن أذكـره وقـد استبشرت بتبسمكِ خيراً منذ ولادتك

- نعم هكـذا أنـا ومـا كـان لـي أن أفعل هـذا إلا بـأمٍ رائعـة وأبٍ عظيم أسأل الله أن يجمعنا به

انتهى حواري معها وقد وضعت رأسها على ذراعيها

وراحت بنومٍ عميق بينما أنا فكنت أبحث بين العواصف عن نجمتي التي فارقتني كما فعل أغلب من أحبهم

ألقيت بغطائي على جسدها ورحت أنبش مواقف صديقاتي من ذاكرتي

فكثيراً ما تبسمت في سري وأنهيتُ ذكرياتي بدموع اشتياقٍ فكم أحن إلى جمعتنا.

وإلى حضن أبي

وحديث عمي الذي أشاركه فيه ويفرح بي فيشعرني أننا أصدقاء من العمر نفسه

زياد

أنهكنا الحِصار وقلّ الطعام والدواء وكاد أن ينفد لولا رحمة الله بنا وبركته وصار كل مَن ظل معي محاصراً بمنزلة أخي الذي لم تنجبه أمي حتى أولئك الذين تعرفتُ عليهم بعد الحصار الذي جعل منا أسرةً واحدة وكانوا أهلي الذين ودعتهم ولا أدري إن كان لقاؤنا سيصير واقعاً أم يظل خيالاً هكذا

وفي كل مرة يموت شخصاً تُنزع روحي معه فكأن موتي سيكون على مراحل

وما ألبث أأوي إلى فراشي إلا وأتذكر مشهد أخي الشهيد بإذن الله الذي دفنته بيديّ تحت تراب حديقةٍ مهجورة مع مئات الجثث مجهولة الهوية كما تمر ببالي العائلة كلها تُراها ريهام زوجتي الحبيبة حية حتى الآن أم قتلها الربو، الربو الليلي والتهاب القصبات المزمن الذي أصابها منذ الصغر فكيف لها أم تصمد أمام هذه الروائح والهجمات الهوائية التي تجتر معها الغبار

ووالدي المسن لا بد من تجديد دوائه فقد انتهى لا شك أتمنى ألا يكونوا حاصروا منطقتنا كما فعلوا هنا

أما ولداي فمتأكدٌ أنهم على حالهم يضحكون بلا سبب ولا يملون من اللعب والمرح في اثنين وعشرين ساعةً يومياً أما الساعتين المتبقيتين فينامون فيها دون إرادةٍ منهم إذ لا سبيل بعدها لمقاومة النعاس

ليلى

وفي الليل الغاشم الثاني على سقوط خيمتنا وبناء خيبتنا كانت أمل تدعي الله بعد صلاتها أن يجمعنا ويلمَّ شملنا كما جمع النبي يوسف بأبيه يعقوب عليهما السلام ويصبر قلوبنا كما فعل مع النبي أيوب حيث ألهمه الصبر على ما ابتلاه وسألت الله أن يرزقنا الأمان والسلام في البلاد وأنا أردد في سري آمين فقد غلبني النعاس ولا أعرف لِحالي تصريف بين نائمة ويقظة وإذ بِجاد يركض مسرعاً ليتخذ من حضن أمل

وطناً مصغر يسكنه وفعل مثله حسام الذي يقلده بكل شيء فقد أحبه كثيراً فاحتضنتهما أمل

بحبٍ وقد غطت الدموع خديها وكانت هذه المرة الأولى التي بكت فيها أمل ولم تتمكن من كتم دمعاتها

أشرقت الشمس على هيئتها الجديدة التي آلت إليها بعد الحرب

لتكون شمس الغربةُ الباهتة التي تبخل بتقديم الدفء وتسلط الضوء على كل حال ولكنه ضوؤها هذا لا يخترق الأجساد كما كان يفعل من قبل فكأنها ارتدت ثوباً من الخمول والإرهاق استيقظت فجذبني مشهد أمل وفي حضنها حسام وجاد نائمين كما كانت نائمة هي الأخرى وسُررت بهدوء العواصف الرملية التي أهلكتنا وشردتنا

فسارعتُ لنساء الخيام المجاورة اللواتي أعددن الفطور وقد ذهبت رجالهم ليبتاعوا الخضراوات والبضائع المطلوبة في أسواق إدلب وطلبتُ منهنّ المساعدة في إعادة نصب خيمتنا وتمكنّا من ذلك لاحقاً حيث قمنا بتثبيتها قدر الإمكان إلا أن أتى مندوبٌ من المنظمة ومعه عصبةٌ من الرجال عملوا على تركيزها بإحكام وأخبروني لو تمر سيارة بها لن تحركها

فابتسمت وكأنني أسكن عقاراً بالغ الجمال ينقصه المدح فقط

ونمنا تلك الليلة بخيمتنا فكانت الليلة الأكثر أماناً وسلاماً بعد مغادرتنا لحي الفردوس.

أمل

بعد تلك الليلة الآمنة التي بتنا فيها بخيمتنا بعد أن أحكمنا وضعها في النهار

جاء الصباح التالي حاملاً معه الغيوم السوداء التي شاركتنا بكاءنا بأمطارها الغزيرة حيث طافت خيامنا ووقفنا جميعاً على منطقةٍ أكثر بقليل ارتفاعاً من قطعة الأرض التي كانت فيها الخيام وحفظتُ مهمتي عن ظهر قلب فأمسكتُ بأيدي أخوتي

كما أسندت أمي جدتي العجوز وبهذا اليوم المشؤوم شهدتُ إحدى أوراق حلمي تسقط سقوط حرف علةٍ بعد أداة الجزم وذلك حين انزلقت قدم جاد الصغيرة تحت أشبارٍ من الماء وراحت الماء تسحبه خلفها وبعد محاولاتٍ عديدة فاشلة زفر زفرةً مودعة ليكون شهيد الخيام ذو الرقم سبعين تقريباً وذلك في مخيمات إدلب فقط

شعرتُ به يأخذ قلبي معه هناك تحت الماء فغرقتُ بالأحزان والآلام كما أن أمي حزنت أي حزنٍ عليه

فكـادت أن تفقـد النظـر بعينيهـا مـن شـدة البكـاء ولثقـل حملـي الـذي ألقـاه عمـي زيـاد علـى صـدري فكـان علـيّ أن أبتســم وأزرع التفــاؤل الــذي افتقدتــه فــي قلــب أمــي وجـدتي وسـاعدني علـى ذلـك إيمـاني الكبيـر بـالله الـذي لا يخيبني ولا يحرمني أجراً ولا ثواباً

وبعـد شــهور شــاع خبـر اللجـوء إلــى تركيـا بـين النــاس فــي المخيمــات وذلــك بشــروط قـد طابقـت حالتنــا بحيــث مَن يتقدم بالطلب يجب أن يحقق

- أسرةً لا فرد

-أسرةً لا شاب فيها ولا رجل

-لا أحد يمكنه العمل ولا ينال راتب شهري

-الشــهادات العلميــة مرفوضــة وذلــك لأنهــم يســتطيعون العمل في مكانهم

عرضــتُ الأمــر وقــد زاد حماســي وعلــت همتــي علّــي أحقق حلمي هناك

وربمــا أقابــل أبــي وأنــا رافعــة الــرأس وأنــاقش عمــي بفصاحة المتعلمين

لكــن جــدتي رفضــت بتزمــتٍ وتعصــب فنهرتنــي لمجــرد تفكيري بالأمر

وحين حاولتُ وأمي إقناعها

جاءنـا ردهـا الـذي فاجأنـا بحدتـه وقسـوته ولـم تكـن هكـذا قط فقد تغيرت جداً

-كيف لنا أن نغادر بلدنا ونحن لا نعرف أي خبر عن البقية أحياء أم أموات أنسيتما عادل رب أسرتكم لا داعي لأذكرك بجدك وعمك يا أمل فمَن ينسى أبيه الأولى به أن ينسى أقاربه بالله عليكِ دليني على الطريقة التي نسيتِ بها أتدري لا لا أريد أن أنساهم أبداً فإن لم يكونوا حاضري فهم الماضي والمستقبل إن كان معاً

-جدتي ما بكِ أتظنين بي هكذا حقاً أيعقل أن أنسى أبي أو جدي وعمي كيف يخطر على بالك أن أفعل هذا يستحيل ما دمت حية وبي نفس يطلع وينزل لكنها مشيئة الله

أنت أخبريني أتعجبكِ العيشة هنا بين الخيام

-هذه الخيام من حولك ليست أقل ألماً من الغربة والفراق يا أمل

إن كان الأمل ضعيفاً هنا في أن تصلنا أخبارهم فإنه معدوماً في الخارج

إن شاء الله أن يجمعنا فسوف نلتقي ولو في المريخ وإن كان الأمر أن نفترق للأبد فلا والله لن نجتمع حتى في المنام

اغربي عن وجهي قبحكِ الله أيتها القاسية اللعينة وهذا ما قد أخذتيه عن أمك

وكانت المرة الأولى التي تشتمني جدتي وتتحدث عن أمي بكلامٍ كهذا فمنذ بداية زواج أمي من أبي أحبتها جدتي كما تحب ابنتها التي لم يقسم الله أن تُرزقها

ـأمي: ألا تقولين شيئاً لتقتنع؟ فأعرف أنّ الوضع هنا يسوء بنظرك إذ يغمر مستقبلنا الوحل الذي أودى بخيمتنا وذهب بأخي إلى اللا لقاء أم كان لكِ رأي مغاير

-أنا.... لا تختلف عليّ الأراضي ولا فرق بينها وقد مرت الشهور على وصولنا فلا الجو يناسبنا إما برد يهتك بنا أو حرّ يحرقنا فالأولاد في خطرٍ دائم ويؤلمني هذا ولا المنظمة بدأت بالبناء الذي وعدتنا فيه مذ وصولنا ربما صدقوا بوعدهم ولكن الوفي به يُكتب بعد رحيلنا ومن جهةٍ أخرى ثمة خبرٍ حسن أو غيره لم يصلنا منذ خروجنا فلمَ نبقى بعد الآن وبيدنا سبيلٌ للفرج

-أيتها المجنونة ما هذه الحماقة أبتلك السهولة يهون عليكِ زوجك وأنا التي كنت أصفك أمامه بالعاشقة الحنون التي تخشى على زوجها من النسيم كيف للعشرة أن تضيع معكم

قالت جملتها تلك وقد جرحت قلب أمي الذي كُسر عدة مرات فخرجت من الخيمة قاصدةً لون السماء فرفعت رأسها وراحت تبكي بحرقة شديدة

ثرية

حين أخبرتني أمل بأمر خروجنا شعرتُ بالهزيمة والانكسار

فمن أول عمري وأنا أكره السفر وأذكر مرة أرسلت لنا أختي سميرة دعوةً لحضور زفاف ابنها فتحمس أبو زياد وأخبرني أنه بحاجة للخروج وقت يستمتع فيه ويروح عن نفسه فقد أتعبه عمله أما أنا فرفضت أن أخرج وقلت له لا أريد الابتعاد عن هذا الحي فقد تعلقت روحي فيه وبات أكسجيناً لي فكيف للمرء أن يعيش بلا أكسجين رغم سهولة الطريق ويسر السفر أما عندما ساءت أحوالنا وضاقت بنا بلدنا فجاءتني أمل بقولها وإصرارها فكأنها سحبت العقل من رأسي وصرتُ أتفوّه بكلامٍ لم ألقِ له بالاً

وآلمني حديثي معها إذ جرحت ليلى بالكلام وكنت أذبح نفسي من الداخل وأنا أشتمها فهي ابنتي التي لم ألدها

وبعد خروج ليلى استطردت أمل حديثها: هوني عليكِ يا جدتي فقد أصاب أمي من الألم ما يرهقها فقدت ابنها قبل شهور بتلك الخيمة التي تدافعين عنها وترغبين ببقائنا فيها وقبل ذلك تركت زوجها لعبةً بين أيدي المجرمين اللذين لا يعرفون الله

أنــا وأنــتِ لــدينا بالإيمــان إحســاسٌ لا يفارقنــا أنــه حــي يُـرزق أمـا أمـي فتخـاف عليـه ويراودهـا الهـم والغـم ولـم يكـن ذنبهـا تشـريدنا وقـد مـنّ الله علينـا بفرصـةٍ نرتـاح قليلاً أنكفر النعمة يا جدتي

فقلـت لهـا بعـد أن عـاد لـي الـوعي وأدركـتُ الحـال الـذي تصفه

-معـكِ حـق فـي هـذا لكـنّ قلبـي كـلّ ومـلّ الانتظـار يـا أمـل أخشـى المـوت قبـل أن أراهـم كمـا أخشـى الحيـاة إن طـال البعـد أكثـر اخرجـوا أنـتم برعايـة الله وحفظـه وأنـا سـأبقى هنا أنتظر خبراً منهم

-لا يـا جـدتي يسـتحيل مـا تطلبـين إن أردتِ القضـاء علـى مستقبل أحفادك فافعلي

حلمــي الــذي وعــدتُ أبــي بتحقيقــه بــأن أكــون طبيبــة ناجحـة فـأرفع رأسـه بمسـاعدة المحتـاجين دعـم الفقـراء ومكافحــة الأمــراض إن آثــرتِ البقــاء فــلا الحلــم يتحقــق ولا نحن ننجو.

-وكأنك تضعين صاعين أمامي أحدهما من الزيت والآخر مملوء بالحليب وكلاهما يغلي فتطلبين مني أن ألقي بقلبي في أحدهما الذي أختاره

-الأمر صعب ولا أخفي عليكِ القرار لم يكن سهلاً، لكنها فترة وتمضي لن نبقى طويلاً هناك كما أنها فرضية مبدئية يا جدتي سنسجل الآن بملء الاستمارة وهنا احتمالان قيد الحدوث إما القبول أو الرفض وأين يكون القدر يكون الخير ألا تذكري هذا كثيراً من قبل ربما هذه المرحلة ضروريةٌ لاجتماعنا

-سجلي ما شئتِ والله لن يختار لنا إلا الخير

ليلى

بعد شهرين طويلين مرا كعمرٍ كامل كانت رحلتنا إلى تركيا حيث قبلوا طلبنا

وانقضت عشرة شهور مليئة بالمحاولات التي تؤول إلى الفشل فتسحب معها الصدمات والخيبات إلينا

وقد شهدت حدود سوريا رحيل أمي الثانية التي رفضت بكل ما تملك من قوة أن تخرج من البلد الذي عاشت فيه تفاصيل حياتها حيث انثنت من وراء أمل وقد سقطت صورةٌ قديمة للعائلة من يدها التي هرب عصبها وهمست لأمل في أذنها وقد قصدت أن أسمع

قولها حين عرفت أن الموت قريبٌ منها فكانت كلماتها تصقع قلبي وتمر على جروحي بالملح فانفجرت باكية لقولها

-حلمكِ يا أمل لا تتخلي عنه وأمك لم يبقَ لها معينٌ سواكِ هذه وصيتي أما جدكِ وولديّ اللذين تمنيت رؤيتهم ولو للحظة فلا تهدئي حتى تعرفي أين وضعتهم الحرب وعلى أي حال

صرخت أمل بصمت وبكت بدموعٍ جافة بكت الحرب أبيها عمها وأخيها والآن تبكي جدتها التي ماتت على أملِ لقاءٍ لم يكن ولا نعرف إن كان سيصير مستقبَلاً

أمل

قد رحلت جدتي وتركت على عاتقي حملاً مضافاً إلى حملي الثقيل فقد أحزنني فراقها وساد الظلام داخلي من كثرة المحاولات الفاشلة

وأخيراً تمكنّا من عبور الحدود فدخلتُ تركيا ومعي أمي وأخوتي حسام وغسان والتحقت فور وصولي بمدرسة ثانوية للإناث من حيث قطعت دراستي أما أمي فقد كرّست وقتها للعمل في تحفيظ القرآن الكريم لأولاد المنطقة التي كان فيها مسكننا الجديد

وحسام وغسان دخلا المدرسة لإكمال تعليمهم

وفي مدرستي الجديدة تذكرتُ أجمل أيام عمري مع صديقاتي الثلاث اللواتي حلمنَ بما يُسمى بالمستحيل

وعلى هذا اجتمعنا في المرة الأولى فكم حلمت أن يجمعنا السبب ذاته مجدداً وتساءلت عن أحوالهم فماذا عساهنّ يفعلون

زياد

جازفتُ بتنفيذ الخطة التي وضعتها مع رفاقي في حي الفردوس حيث تسللنا خطوةً تلو الأخرى إلى المقر الذي كان للعدو فأخذنا ما يكفينا الجوع والحاجة واستعدنا به ما تبقى لنا من قوة

وقد رآنا اثنان من الحراس ليهبط قلبنا ويمكث بين أقدامنا إلا أن وقعوا ضاحكين ضحكاً هستيرياً وراحوا بنومٍ أراحنا وقلل من خوفنا فسارعنا بالهروب على ما بدا لنا أنهم بالغوا بشربهم للخمر وذلك لحسن حظنا

وبعد شهر من الجوع الذي نهش قلوبنا أعدنا الكرة نفسها لكن الجرة لم تسلم في كل مرة وهذه المرة بالتحديد عثرتْ علينا قواتهم فقتلوا أكثر من نصفنا وتمكنّا نحن البقية من الفرار من بين أيديهم آخذين معنا القليل من الطعام والدواء.

أمل: اقترب اختباري للشهادة الثانوية الرحلة التي تسبق دخولي للجامعة فصار تحقيق حلمي قاب قوسين أو أدنى

درستُ لمادتي الأولى وقد وجدت صعوبةً في الدراسة التي ابتعدت عنها لوقتٍ عصيب وكان للظروف

القاسية التي عشتها دورٌ في إبعادي عن الكتب وإرهاقي حين بدأتُ دراستي وقد كنت قبل الحرب من الأوائل في صفي فأفقدتني حالتي التي ساءت شيئاً فشيئاً من حماسي وسرعة استيعابي وهذا ما كان في بداية الأمر

أما فيما بعد فقد ساعدني هدفي البعيد المقترب وغايتي النبيلة على استرجاع ذاكرتي وملاحظتي وحفظي وذلك بالتدريب والتمرين المستمر حيث أُنهك جسدي وسهرتُ ليالي طويلة ودعمتني أمي ذاك الدعم المادي والمعنوي الذي أحتاج

وبعد تقديمي لآخر مادة تذكّرت صديقاتي اللواتي اعتدنَ على العودة معي إلى منزلنا وتكون أمي قد أحضرت لنا ما لذ وطاب من الأكلات والحلويات وذلك احتفالاً بانتهائنا من هذا الحمل الثقيل

كم اشتقتُ إليهنّ واشتقت لتحقيق حلمنا الذي سيجمعنا إن قدر الله

أكملتُ طريقي راكضةً إلى منزلنا في الريحانية وأنا أحاول في الضحك الذي نسته شفتاي.

ليلى

كادت نبضات قلبي تقفز من بين أضلاعي وتطوف في أرجاء جسدي آخر مادة لدى أمل اليوم سينتهي تعب الامتحان

طرقت الباب لأفتح لها وهي تنادي أماه أماه لقد انتهيت من الامتحان وهمه

- الحمد لله الذي أدخل السعادة على قلوبنا بعد أن خرجت خروجاً طويلا

أسأله تعالى ألا يضيع لكِ تعباً بذلتيه وأن يمنحكِ بقدر ما عانيتِ في السنين الأخيرة فأنت يا أملي تستحقين الخير

-ألا تأخذني أمي إلى مكانٍ ما فأرفّه عن نفسي التي أرهقها الامتحان

-هيا غيري ملابسك لنذهب فنتسوق معاً

أحبت أمل أن تباسمني بقولها

-سأفعل ولكنني لن أذهب قبل أن أتناول الغداء الذي اعتدته بعد امتحاناتي السابقة

ففاجأتها بردّي

-أتقصدين الملوخية مع الأرز والفطائر بالجبن الذي تشتهينه

- ماذا ما هذا الدلال كله يا أمي

قالتها وهي تكشف الصحون لتتناول غداءها بشهية أحببتها وأكملت لقد اقترب تحقيق الحلم يا حبيبتي ستصير التي أمامك طبية رائعة تعجبك ما رأيك ألا يليق بي!!

سكتُ برهةً فقد وضعت يدها على جراحي وضغطت لتؤلمني

عن أي حلم تتحدث تلك البريئة ومن أين سآتيها بالمال وقد صرفنا الكثير على عمليتي الأخيرة لإزالة الدهون التي سببت لي الأمراض

وسرعان ما حولتُ عبوسي لابتسامةٍ شاحبة وقلت بلى تليق بابنتي أعلى المراتب ولكل مجتهدٍ نصيب

لكن أمل تمكّنت بما تملك من قوة الملاحظة من انتباهها لحالي الذي رغبتُ بإخفائه فقالت لي

-ما بك يا أمي أتتكلفين أمام أملك ما الذي يشغل فكركِ شاركيني به هيا

لا أريد تنغيص فرحتها هذه التي لم أرَ مثلها فرحةً حقيقية منذ سنين

-والدك يا أمل وعمك يشغلا ذهني ويتعبا فكري

- سيجمعنا الله يا أمي في يومٍ عساه قريب

ولكن هذا منذ أعوام لا أعرف أجدني أشك في هذا السبب لا أعتقد أنه وحده الذي أزعجك

-عجباً من حالكِ تحلمين بالطب وتشكّين كالمحققين والقُضاة

- نعم يا أمي فالأول ورثته عن عمي زياد لكثرة تعلقي به وأعرف أنه حلم كما أحلم منذ أعوامٍ طويلة لكن ظروفه المادية منعته من دراسة الطب التي طمح لها

أما الثاني فقد أخذته عنكِ ألا تتذكرين سهرات تحقيقكِ مع أبي حين تلحقين سؤالاً بالآخر دون أن يفوتكِ أدنى حدث جرى معه

-والله هو مَن عوّدني على هذا

منذ لحظة تعارفنا وهو يقصّ عليّ أحداث يومه بالتفصيل فما إن أراه قصّر إلا وأسأله أن يكمل خشية أن يكون مكروهاً ما قد حصل معه ولا يريد إخباري فلا يجد مَن يبوح له فأكون السند الذي يساعده ويحمل معه المتاعب

أما الأفراح فلي نصيبٌ منها بتحقيقٍ أو دونه

وبهذه الإجابة أجّلت أمل شكوكها إلى وقتٍ آخر كما ساهم جوعها في ذلك

أمل

تناولتُ غدائي الشهي وأنا أنظر حلمي الذي يقترب

تجولتُ مع أمي وأخي غسان بالأسواق المتواضعة أما حسام فقد اشتدّ ساعده وبدأ العمل مع جارٍ لنا يُدعى أبو سمير صاحب فرن الخبز قرب منزلنا

تأملتُ أوجه العامة البائسة وكم آلمني مشهدهم وقد تاقت نفوسهم لظل الوطن وكرهوا من الغربة ما كان لهم.

بعد شهرٍ وثلاثة أسابيع صدرت نتائج البكالوريا ومن بعدها مفاضلة الأفرع الجامعية حيث نجحت بمعدل أعلى من الحد الأدنى لفرع الطب البشري بعلامتين وكنت قد جمعت مالاً عن طريق تدريسي لطلابٍ في مرحلتهم الابتدائية يمكّنني من دفع الرسوم المالية للتسجيل في فرعٍ جامعي وتذكرت أن الأفرع الطبية في البلاد الأوروبيةَ تتطلب أقساطاً مالية باهظة مقدّرة بعملتهم "الدولار"

وكان هنا أصعب قرارٍ أتخذه في حياتي عليّ أن أختار حلمي أو راحتي فقد عرفتُ أنني لن أحصل على قسط الطب الأول إلا إذا سلمنا بيتنا وعدنا لعيشة الخيام وبعنا أساور أمي التي خبأتهم لأيامٍ شديدة الفقر

وأخيراً اتخذتُ موقفي المُحَايد ورحت إلى أمي التي لم تبدِ رأيها بقرارٍ مصيري كهذا حتى تترك لي الفرصة بالتفكير وأخبرتها.

-أمي لقد قررت أن أدرس في معهد التخدير الأقرب للأفرع الطبية كما أن قسطه رمزياً ومقدوراً عليه

-هذا نصيبك وتلك إرادة الله والخير بالخواتيم يا غاليتي

سجّلت اسمي بمعهد التخدير الذي يبعد عن سكني كيلو ميترات عديدة وانضممت لراكبين الباص لينقلني كل يوم بالذهاب والإياب.

استطعتُ أن أدخل القلوب وذلك بفضل الله الذي منحني شخصية ذكية ومحبوبة حيث كان يومي الأول في الدوام بمعهد التخدير حيث أن المبنى مشترك بين الكلية والمعهد فكان بيني وبين حلمي جدارٌ واحد ولم يكُن المبنى هو المشترك وحسب بل المدرسين وأغلب المواد كانت للكلية والمعهد معاً

فعند حضوري لأول محاضرة رغم أنني لم أعتد بعد أجواء الجامعات إلا أن المحاضر أُعجب بطريقة محاوراتي وتفاعلي بالنقاش حول الأفكار الرئيسة فأخبرتني الطالبات أنهنّ ظننّ أنّي درست المحاضرة آلاف المرات قبل هذا

راما

سَحرتنا أمل بذكائها وقد تفوقت على نفسها من المحاضرة الأولى.

وقد شغلت حيزاً في قلوب الجميع طلاباً ومدرسين

فحاول كل الطلاب التقرب منها شباناً وبنات وكانت ودودةً مع الجميع مجرد أن تسألها إحدى الفتيات سؤالاً تستطرد شارحةً المحاضرة كلها ولذلك كانت الأكثر كاريزما لدى الرفاق.

وراحت الأطباء تحدث طلابها بالكلية عن تلك الفتاة الذكية التي تفهم الكثير وتملك ثقافةً واسعة وأخلاقاً حسنة فبكل الدفعة لن أجد لها كارهاً أو حاسد

أنس

فاجأتني تلك الطالبة المميزة بأناقة تفكيرها وجمال هيئتها وعندما أنهيت المحاضرة سألتها عن معدلها بالمرحلة الثانوية فأخبرتني به وقد ازداد استغرابي وعجبي من حالها.

تركتها وسألت راما في ساحة الانتظار التي كانت في وسط الجامعة عن سبب اختيار صديقتها أمل للمعهد رغم توفر الكلية

فأخبرتني بسوء وضعها المادي الذي كشفته حين اضطرت أن تزورها لاستعارة دفترها

كانت تتحدث ولم تأبه بشرودي وأنا أفكر بطريقةٍ أساعد تلك الفتاة الرائعة التي استولت على لُبّي

ووجدت أن أعرض عليها مبلغاً من المال وهكذا فعلت باليوم التالي حيث قدمت لها المال وسألتها قبوله كدَين وستعيده لي فور تخرجها

لكنها أبت بكل ما تملك من كبرياء وعزة نفس ورفضت المساعدة وهذا ما جعلني أزداد هياماً وإعجاباً بها

حيث قالت لي: أستاذ أنس لا أريد أن أردّ طلبك وما جزاء الإحسان إلا الإحسان ولكنني بنعمةٍ من الله ولا أحتاج المال بالقدر الذي أحتاج وأنتفع بمعلوماتك وأكرر الشكر والتقدير لكَ أستاذي الفاضل

أمل

في نهاية السنة الدراسية الثانية في المعهد أجريت اختباراً عملياً وآخراً نظرياً فكنت أقترب من حلمي بتفوقي وارتفاع درجاتي

وبصدور النتائج حيث كنت الثانية على دفعتي وذلك بمعدل سبعةَ وتسعين وثمانيّة أعشار، وبالتالي يمكنني النقل إلى كلية الطب شعرت بلحظةٍ سبقت وتُعاد

فأخبرتني أمي بحسن حظي

- قد كتب الله لكِ هذا المستقبل فانقلي أوراقك

-ماذا ومن أين نأتي بالأموال

- اتصلت زميلتك راما وأخبرتني أن أستاذاً لكِ في المعهد اسمه أنس تحدث إلى المدير بشأنكِ وأخبره عن ذكائك فشرحا الوضع لمدير منظمة ال DRFS فتكفّلت بتكاليف دراستكِ ومعكِ اثنين من الطلاب الأوائل طيلة سنواتكم الدراسية شريطة ألا يتدنى معدلكم السنوي تحت الحد الأدنى ثمانين.

- أتقولين الحق بالله عليكِ يا أمي أهذا ما حدث

- بلى هذا ما حدث بالتفصيل مبارك يا طبيبتي الجميلة

تساقطت دمعات الفرح من عيوني وتمنيت لو أن أبي وعمي معي

وفـوراً تـذكرت صـديقاتي فـازداد حماسـي ورغبتـي فـي الإقبال على حلمي

وفـي السـاعة الثانيـة عصـراً بينمـا كنـت أدرّس أخـي غسـان مـع طلابـي حيـث صـار بعمـرهم بعـد رجـوعي مـن الجامعـة رنّ الهـاتف وجـاءني صـوتها الـذي يحمـل الهـرم والقِدم تقول

-السـلام علـيكم أهـذا هـو بيـت السـيد عـادل الحميـد والـد أمل!!

اضـطربت دقـات قلبـي اسـم أبـي بعـد هـذا الوقـت الطويـل لابد أنه خبرٌ منه

-نعم خالتي هذا هو تفضلي

-أعـرّف عـن نفسـي أولاً أنـا ربيعـة القصـير أكـون عمـةً لأسـتاذك أنـس القصـير وقـد أخبرنـي كثيـراً عـن أخلاقـك وذكائـك كمـا أعجبـه شـكلك فتشـوقت لمعرفتـك وعجلـت لطلـب يـدكِ للـزواج منـه فـأخبري عائلتـكِ وأعطنـي موعداً لزيارتكم في حال تمت الموافقة

ارتـبط لسـاني وقـد خـاب ظنـي إذ رأيـت أنـه الخبـر مـن والدي فترددت قبل أن أقول بصوتٍ يرتجف

-شـكراً لـك يـا خالـة علـى هـذا المـدح الجميـل ولكننـي لسـتُ مـن أهـل البلـد وغـداً يتحسـن الحـال فـي سـوريا وأعـود مـع العائلـة حيـث مسـكننا الأصـلي وطفـولتي وأحلامـي التـي تسـكن هنـاك أسـأل الله أن يـرزقكم بمَـن

هــي أحســن منــي الفتــاة التــي تســتحق الأســتاذ أنــس بأخلاقه وحيائه

- حالنــا يــا ابنتــي كحــالكم ليســت تركيــا موطننــا إلا أننــا ننتظـر هـدوء الأوضـاع بسـوريا لنعـيش بدمشـق حيـث لا أمـل بـالعودة للجـولان التـي خُلقنـا فيهـا لا أجـد فـي ذلـك سبباً مقنعاً لرفضك

لـم أدرِ حقيقـةً مـا الـذي يمنعنـي كـل مـا أدركـه هـو صـورة أبـي، عمـي رفيقـاتي الـثلاث حلمـي أيعقـل أن أضـحي بكـل هـذا مـن أجـل الـزواج لكنـه يسـتحق هـذا الـذي تحلـم فيـه كـل الفتيـات زوجـاً ربمـا هـذه المرحلـة هامـة لتحقيـق حلمنـا فـلا أظنـه سـيوهن عزيمتـي بـل سـيكون سـنداً لـي ويحمــل معــي أعبــاء حلمــي وطنــي أهلــي صــديقاتي تلعثمـت كثيـراً قبـل أن أقـول بانـدفاعٍ وثقـة لا أدرِ كيـف باغتتني فجأة فما كنت أعرف مثلها بي

- خـالتي أنـا مبـدئياً أوافـق علـى طلبـك ولله لـن أجـد كـل عمـري مثـل الأسـتاذ أنـس شـريكاً أقاسـمه مُـرّ الحيـاة قبـل حِلوهـا ونعـيش معـاً كـل تفاصـيلها فنصـل لـذروة النجـاح سـوياً ولكـن الـرأي لأمـي حـين ترجـع مـن المسـجد سأخبرها باتصالك وأنظر رأيها

-نعـم الـرأي يـا أمـل يشـهد الله بـأنني فرحـت بـكِ أي فـرح فقـد أحببتـكِ مـن كثـرة مـدح أنـس بـكِ وأنـا يـا بنيتـي أعتبـر أنـس ولـداً لـي فقـد كبـر علـى عينـي حيـث توفيـت أمـه حـين مولـده وعـاش واحـداً مـن أهـل بيتـي ومـا رأيـت فـي

أبنـــائي كوعيـــه وطموحـــه وأنـــت أيضـــاً إن تـــم الأمـــر ستكونين ابنتاً لي

ليلى

فـي وقـت عـودتي مـن الجـامع وقـد كـان الجـو حـار جـداً رحـت أخلـع ثيـابي والتعـب ينـال منـي دخلـت أمـل غرفتـي واستأذنت قبل أن تفتح الحديث معي

-أمي ما رأيكِ إن تقدم أحدٌ ما لخطبتي

استغربت لهجتها وقلت

-أبحـث عـن سـعادتكِ كمـا تبحثـين عنهـا بـل وأكثـر ولا أجـدني مـن نـوع الأمهـات اللـواتي يخفـن أن تُخطـف بنـاتهنّ مـن بـين أحضـانهن فأنـا علـى قناعـةٍ تامـة أن مَـن يخـاف ربـه لا يبعـد زوجتـه عـن أمهـا وخصوصـاً إن كـان يحبهـا علـى الحقيقـة وإن كـان هنـاك مَـن سيسـعد قلـب ابنتي ويساعدها على تحقيق حلمها فلا أرفض

-نعـم لسـتِ كبقيـة الأمهـات كمـا أننـي لسـتُ كغيـري مـن البنات اللواتي يُخطفن من أمهاتهن

مازحتهـا بقـولي أسـاعدها علـى تخفيـف توترهـا حيـث لحظـتُ العـرق يتصـبب مـن جبينهـا وقـد ازدادت وجنتيهـا حُمرةً

-لـمَ هـذا السـؤال فـي هـذا الوقـت مـا المناسـبة أسـئمتِ العيش مع أمكِ فما كان لكِ إلا أن تفترضين العريس

- لا والله يا أمي ولو ظللت العمر كله بجانبك لن أملّ لكنه الحقيقة لا فرضية في الخيال

الأستاذ أنس الذي سخّره الله سبباً لدخولي كلية الطب يطلب يدي واليوم اتصلت عمته وأخبرتني فما الرأي عندك

جاءتني بخبرٍ لم أفرح بمثله منذ سنين فقد أعجبني الأستاذ أنس

-رائع يا أملي لم أكن أعرف أنس هذا ولكن ما أعجبني بذلك الطريقة فمَن تقدم بطريقةٍ كهذه التي يسمونها النمط التقليدي القديم وخصوصاً أولئك المثقفون أما هذا رغم تقدمه بالعلم وكونه مدرس بجامعتكم فلا بد أنه ميسور الحال مادياً وأراكِ راضيةً فلو لم تكوني كذلك لما أخبرتِ أمك أصبتُ هذه المرة أليس كذلك!!

ومع غمزةٍ وابتسامة قلتُ جملتي تلك بتهكمٍ فازدادت خجلاً

- لا أعرف الكذب والتلاعب يا أمي إنه وقع في نفسي كما فعلتُ معه حيث وجدت فيه الخلق والوسامة والشهامة التي تفتقدها شباب عصرنا كما أنه في لقائنا الأول ذكّرني بأبي جمعنا الله وإياه على الخير

فله تفاصيل والدي ذاتها حين يناقش ويشرح ويتفانى رأيت فيه أبي الذي أشتاق لحنانه حين عرض عليّ

مبلغاً من المال وأذكر ذات مرة سقط شابٌ معنا على الأرض إثر دوارٍ عنيف وكأنه عانى الإرهاق والتعب قبله فسارع الأستاذ أنس لحمله أمام كل الطلاب رغم وجود أصدقاء الطالب إلا أنه أبى أن يتركه فأخذه إلى المشفى كما نُقل لنا أنه ما قبِل أن يتركه إلا بعد أن طمأنه الطبيب على صحته

عندما راحت أملي تصف فارس أحلامها القادم إليها وتذكر ما أعجبها منه ذاك الحديث اللا منتهي شعرت أن قلبي سيطمئن عليها معه ونهضت مسرعةً أتصل بالرقم الذي ظهر لي على الكاشف لأخبر أهل الشاب بقبولنا

أمل

اتفقت أمي مع العمة ربيعة على موعد الزيارة ومن ثم الخطوبة

فكانت خطوبتنا مختلفة عن كل الحفلات التي حضرتها سابقاً إذ لم يحضرها أحد من أهلي سوى أمي وشقيقاي غسان وحسام أما أنس فقدم مع أبيه مازن وعمته ربيعة وألبسني الخاتم ليعلن ارتباطي به مدى العمر فشعرتُ بارتياحٍ يرافقه القلق ولكنني أحببته كما لم أعتقد أن أحب زوجيٍ من قبل

وكان ملحاً في تعجيل زفافنا إلا أن مخاوفي كانت تزداد شيئاً فشيئاً عن ولدٍ في الغربة لا وطن له ولا

أصول كيف يكوّن أصدقاءه بماذا سيحلم من أين يأتي بالحماس

ويحي كيف سأتسبب لطفلٍ آتي به إلى حياةٍ كهذه والله لن يطاوعني قلبي أن أفعلها مع الغريب فكيف أفعل مع ولدي قطعة من جسدي كما أنني أظن أن الولد سيعيق تقدمي ويكون عثرةً في طريقي

فكثيراً ما حاولت تأجيل الأمر حتى ضجر أنس من تأخيري حيث لا يرى له مبرر مُقنع وحين اتخذت من دراستي حجةً لي فأخبرني بأنني قوية بقدر ما يكفي للتنسيق بين الدراسة والحياة الزوجية فصارحته بما في قلبي اتجاه مسألة الإنجاب وأنني أرفض حالياً وبشدة أن أجني على طفلٍ أحضره للحياة

ففاجأني بردة فعله حيث قال: سامحيني يا أمل إذ لم أخبرك حتى الآن فأنا أحببتكِ حباً لم أكن أشعر فيه مع أحدٍ غيرك وأريد علاقةً متينةً وطويلة تربطني بكِ ولكنها ليست بطفل أكره الحرمان والفقد فقد حُرمتُ أمي في وقتٍ مبكر في حين ضربت الطبيبة على ظهري لأبكي وأبشرهم بحياتي التي بدأت انتهت حياة أمي فنزع ابنها روحها معه أرأيتِ مجرمٌ أنا منذ لحظات عيشي الأولى

كما حُرمتُ الأصل الذي تتحدثين عنه فكُتب علينا نحن أبناء الجولان التشرد والعيش في اللا وطن لذا لا أريد الأولاد فأخشى مفارقتكِ بحدثٍ مشابه لما جرى مع أمي

حين قالها غص بالبكاء ولكنه تماسك أعصابه أمامي فتألمت لحاله ولعنتُ الحرمان الذي ألمّ بنا نحن الاثنين منذ الطفولة ألف مرة

وما كان بوسعي إلا أن أمسك يده برفقٍ وأطيب خاطره بقولي

- أنا والله أحببتك وقد ظننت أن قلبي هذا الذي حطمته الحرب اللعينة والظروف الشنيعة التي جاءت تباعاً بلا توقف لم يعد صالحاً لشيء اسمه الحب ولكنك أوقعتني في حبك فلكم أتمنى أن نتزوج في أقرب وقت ولكن حلمي يا أنس حلمي هذا مع صديقاتي أجده بيننا رأيي لو نؤجل الأمر قليلاً فابتسم لي ليريح قلبي وأجابني بحماسٍ وشجاعة

- حبيبتي مَن قال إنني سأقف عائقاً وأعرقل الطريق بكِ إلى حلمنا معاً أتعرفين يا أملي حلمكِ هذا هو ما زاد من إعجابي بكِ فبالظروف هذه لن يقدر إنسانٌ على حلمٍ وطموح كالذي تحلمين ويعمل المستحيل ليمشي إليه إلا مَن كان جادّاً يمتلك الإيمان والموهبة وهذا ما ميزكِ عندي عن بقية الفتيات من حولك أعدك يا أملي أن نصل للذروة معاً وإن كنتُ لا أفهم إلا القليل بعيداً عن اختصاصي في الكيمياء إلا أنني شعرتُ بالشغف لتحقيق حلمك وكأنه بالعدوى انتقل لي فصرت أحلم كما تحلمين

أراحني كلامه فقلت قبل أن أتردد مجدداً ودون أدنى ارتباك

-فليكون زفافنا الخميس القادم وعلينا أن نخبر أهلنا بقرارنا

فاجأتُه بصراحتي وراقبتُ ملامحه حيث انفرجت أساريره وازداد جمالاً فأومأ لي بالموافقة وحضنني بحنان وهذا ما كان أفضل من ألف كلمة يقولها إذ عبّر بالمشاعر التي وصلت إليّ من فورها

وكان الزفاف بسيطاً كأي شخصين أحبا بعضهما وتعاهدا أن يكملا عمرهما معاً رغم قسوة الظروف وتجاوزنا معاً مرحلة اليأس التي تنتاب الجميع في ظروفٍ لا تمثّل جزءاً من ظروفنا.

زياد

لقد أتعبتنا سنين الحصار التي أذاقتنا الألم بكل ألوانه بان علينا الكبر والهرم خلال هذه السنوات التسع التي كانت مضاعفة فكل حدثٍ مرّ فيها أضعاف ما يحدث خارجها موتٌ وحصارٌ وألمٍ، وجوعٌ، وتشرد، خطرٌ، وقلة هكذا بل وأكثر مرت علينا بين قيود الحي التي أسرتنا داخل الظلمة التي كادت أن تقضي علينا واحداً تلو الآخر

ولكنّ مَن كتب الله له العمر لن تقتله الشدة مهما افترست والتهبت حيث مكّننا الله من الصمود وبقينا نصارع الحرب لنعيش حياةً تشبه الموت الذي نحاربه

أمل

أكملتُ سنواتي الجامعية بصعوبةٍ بالغة كوني المسؤولة عن أهلي وبيتي كما ساعدتُ أخي حسام بدراسته الثانوية حيث اتخذتُ من تجربتي الدراسية قواعداً شتى ولا بد من احتوائه بهذا العمر الذي يجعل صاحبه يظن أن الحياة عبارة عن مجموعة أحلام ويرى من نفسه الفارس البطل الذي يخترق الجدران ويفوق الغيوم يشق الطرقات ويخوض البحار فقد شاهد أفلام الكرتون بصغره وعزم على التطبيق عملياً

حاولتُ أن أشرح له مغزى الحياة وعناءها فأخبرته أنّ الإنسان بلا هدف كالصاعد في مركبة ولا يعرف وجهته فلا الطريق ينتهي ولا هو يتحرك.

ليلى

لقد أنهت أمل آخر سنة في دراستها وتخرجت من كلية الطب بمعدلٍ مُمتاز أهّلها للإكمال في الدراسات العليا حيث عرض عليها عميد الكلية أن تفعل وهو مَن سيخبر نفس المنظمة بإرادتها ويطلب أن تدفع لها أقساط سنوات الاختصاص

لكنها أبَت أن تكمل وذلك عندما قرأتْ على صفحتها في الفيس بوك من القرارات العاجلة.

"لقد تمّ فكّ الحصار على أحياءٍ في حلب ومنها بستان القصر وحي السكري وحي الفردوس و....وعم الأمان فيها لكنها لا تزال خالية إلا من سكانها الذين رفضوا الخروج منها رغم ضعفها"

أمل

وأنا أتصفّح في الفيس بوك وأحاول البحث عن أي خبرٍ يصلني من أبي وعمي صديقاتي أي خبر فقط أمسك رأس الخيط لأكمل بنفسي فقرأت عن الفرج بمدينتنا حلب

وما كان بوسعي إلا أن أنادي

-أمي.... أنس.....

لقد جاء الفرج وعاد الأمان إلى حيّنا سنعود سنعود يا أمي

-أشعر بحلمي يدنو ويقترب أليس كذلك يا أنس وها نحن معاً فلنكن هكذا حتى النهاية.

-نعم يا حبيبتي سننطلق إلى البلد الحبيب وأشتم رائحة أمي بين أزقته وتلتقين بمَن طال الفراق بينكم ونحقق حلمنا يا أملي

ولكن أرى أن نروّي في الأمر بضعة أيام فقط قد يكون تضليلاً إعلامياً والأمر مجرد خدعة يتشفّون بنا مجرد وصولنا

-أمي أتسمعين ما يقوله أنس ننتظر ونصبر أياماً أُخر ألا يكفينا ما صبرنا.

-نعم يا بنيتي أنا مع زوجك فلنصبر قليلاً يقول المثل يا أملي "الشجاعة صبر ساعة ".

وقبل أن تكمل أمي صرخ حسام بوجوهنا

-لا والله لن ننتظر كل هذا إنه بلدنا أراكم اعتدتم الغربة ولا تفرق المسألة معكم؟

فقال أنس وهو يضع يده على كتفه

-سنذهب سنذهب إن شاء الله

أما غسان فقد انشغل بحزم أغراضه الثمينة في حقيبته

أنس

قررنا المكوث وقتاً قصيراً بعد إنهاء الحِصار وبعد أيام كان عيد زواجنا وقد فكّرت كثيراً بالهدية التي سأقدمها لأملي بهذه المناسبة فتذكرتُ شغفها بالقراءة وصداقتها للكتب فقررتُ أن أحضر لها كتاباً

ودخلت المكتبة فلفت انتباهي غِلاف كتابٍ برسمته وألوانها فاشتريته فوراً.

وسارعتُ إلى المنزل لأجد أمل تنتظرني فأعطيتُها الكتاب وأنا أقول كل عام ونصفي الثاني بخير

فعجبتُ لردّها الغريب وقد أخذته ترقب غلافه وقرأت العنوان بصوتٍ عالٍ "على الضفة الأخرى"

وقالت بصوتٍ أخفض أبي.. حلمي.. وطني.. صديقاتي.. أنا

- وأنت بخير

فقط وأنا بخير ما الذي حصل

لا تلحظ وجودي هكذا بان عليها

وهي تنقّل نظرها أعلى وأدنى الصفحة الأولى وصرخت رزان رزان

وراح يتردد صدى صوتها في أرجاء الغرفة وهي تضحك والدمع بعينيها

-ما بكِ أين رزان

-لا أدرِ يا أنس لكن الكتاب من تأليف صديقة طفولتي وحلمي رزان واسمها الثلاثي أكّد لي ما أرى

أتذكر ذات مرة سألتها عن كتابة اسمها ثلاثياً في المذكّرات والأشعار وحتى على دفاترها المدرسية فأخبرتني عن تلك النشوة التي تنتابها حين يُذكر اسمها "رزان ياسر خلف" وكم تتمنى أن يتردد اسمها بين الناس من كل النواحي فتكون كاتبتهم المفضلة وذلك بورود اسم أبيها دائماً فله الكبير من الفضل على موهبتها

أدخلت أمل السعادة على قلبي بخبر صديقتها.

-الحمد لله يا أمل لا مستحيل مع الله وها قد عرفتِ شيئاً عن إحدى صديقاتك

-ولكنني لم أعرفْ بعد أخبارها ولا عنوانها

- انظري في آخر صفحة فقد دُوّن اسم الصحيفة

تعالي معي

ذهبت على صفحتي في الفيس بوك لأجد عنوان الصحيفة التي تعمل فيها رزان فقد رأينا اسمها بين الكتّاب المستمرين لدى الصحيفة

زياد

زال الحصار والخطر فصار بإمكاننا الخروج حيث شئنا هكذا أخبرونا

وبعد ذلك خرجتُ مسرعاً إلى بيتنا

لأجد أيمن وحنان في بيت جيراننا الجدد وقد كبرا

فركضتُ إليهما أحتضنهما وأنا أسأل أين جدكِ يا حنان أمك كيف حالها؟

لقد فارقا الحياة يا أبي بآخر ضربةٍ استُشهد جدي حين خرج ليجلب لأمي دواءها وصمتت

فأكمل أيمن وأمي تُوفيت من شدّة الالتهاب في قصباتها.

على الضفة الأخرى

بين الحرمان والحرب مسافات للقلم

رزان

كُل شيءٍ كان لطيف بعد تلك الليلة التي اجتمعتُ فيها مع صديقاتي الثلاث وبعد أيام

دخل والدي وهو يلهث بقوة كأنه كان يركض لساعات وقال: هل الجميع في البيت؟

فأجبتُه بتوتر

لا يا أبي أخي محمد اتصل منذ قليل وأخبرني بأنه لم ينهِ عمله بعد، ماذا حدث؟!

ليرد على سؤالي بحزن: تم رميّ قذيفةٍ على السوق.

ويُقال أيضاً أن هناك جرحى وضحايا كثر

وسمعته أمي وهي قادمة من غُرفةِ نومها لتقول ببكاء: ولدي أين محمد ولدي؟

فقال أبي: لا تغفلي على أن هذا عمله والله الحامي لا نحن.

فقلــت: لقــد طمــأنني عليــه منــذ قليــل وأخبرنــي بأنــه سيتأخر، لا داعي للقلق

تركتنــا أمــي بطريقهــا لغرفــة النــوم وهــي تــتلفظ بالأذكــار المسائية.

قــال والــدي بخــوف: لا أفهــم معنــى للهجــوم المفــاجئ هــذا، ألا يخــافون الله؟ مــاذا لــو وقــع الكثيــر مــن الأبريــاء ضحايا قصفهم؟

تنهــدت وقلــت: لا تقلــق يــا أبــي كــل شــيء ســيكون بخيــر حتى أخي.

(قلتهــا وقلبــي يــدق بعنــف، خــوف، حــزن ...لا أعــرف مــاهي إلا مشــاعرٌ مضــطربة كأنهــا تؤكــد لــي حــدوث كارثة مع أخي).

وفــي اليــوم الثــاني اســتيقظتُ علــى أمــل رجوعــه فــذهبتُ لغرفته لأطمئن عليه وجدت سريره خالياً

وشعرتُ بالألم في قلبي فاتجهتُ للخارج لأجد والدتي تقف أمام التلفاز والصدمة مرسومة على وجهها هممتُ أن أسألها عن سبب وجومها هذا

ولكنني انتبهتُ لاسمَي أخي محمد وأحمد شقيق براءة بأنهم قد استُشهدوا نتيجة الهجوم العنيف بالصواريخ والقذائف على السوق حيث كانوا يسعفون المصابين

وقرأت أيضاً "كما تم الهجوم على الشوارع الأولى من حي الفردوس فخطر ببالي ذاك الذي تسكن فيه أمل وأكملتُ قراءةً فوقع الكثير من الشهداء والجرحى، جاءني الخبر كالصاعقة فتمتمتُ بتكذيب الخبر -لا.... لا.... أخي لم يمت ...محمد حي .....أمي ردي على .... هل تركَنا أخي دون أن يودعنا...لا هذا مستحيل..... يا الله ...

ملأ صوت نحيبي الحي شعرت بأضلاعي تتكسر داخلي.

ولكن أمي كانت شاردةً بالا شيء فلم يأتني الرد على أسئلتي المتتالية

زينب

صدمني خبر الوفاة هذا وقهرني فراق ولدي قطعة من جسدي رحلت للأبد وما زاد من ألمي وتعبي إلا منظر

رزان التي تصرخ بأعلى صوتها لا تريد التصديق فتركتني هي الأخرى وانزوت بنفسها بعيداً لتبكي.

وفي هذه الأثناء طرق الباب فحاولت القيام لأشعر بشللٍ في أطرافي إذ جذبني الكرسي وشدني إليه قبل أن أنهض وما كان لرزان إلا أن تفتح الباب بنفسها

رزان

طُرِق الباب ولاحظتُ تأخر أمي في فتحه فتحاملتُ على نفسي وفتحته لأجد عزائي بصديقتي براءة وقد تورمت أجفانها واحمرت عيناها من شدة البكاء فاحتضنتها بقوة وكأنني ألقي عليها كل ما بداخلي من أحزان وبكينا معاً حتى جفت مآقينا

وقالت: إذاً مات محمد مع أخي الذي تركني لأمضي في معارك الحياة وخسرته فما لأحدٍ أن يملأ الفراغ الذي خلّفه وراءه

لأنظر لها بخوف معنيّ هذا دليل على أن كل شيء صحيح كيف!!!

رأيتُ من بين دمعاتي أبي ووالد براءة وبعض الناس حاملين جثمان شقيقي وشقيق براءة كان المنظر يبكي الحجر.

وشــعرت بــالظلام يحــاوطني مــن كــل ناحيــة فقــط أراه يبتسـم لـي بحـبٍ وود هـذا مَـن فقـدت والله إنهـا لخسـارةٌ لا تُعوض إنه أخي الغالي محمد

زينب

مـرت أيـامٌ علـى رحيـل محمـد يطـوي ليلهـا نهارهـا ويُقلـب نـهارها ليل

وكانــت الفاجعــة المؤلمــة كبيــرة وضــخمة فــي أول الأمــر وراحت تتناقص حتى تحولتْ لذكرى ودعاء

هكـذا كـان حالهـا معـي ومـع زوجـي ياسـر، أمـا رزان فقـد فقـدنا أثرهـا الجميـل فـي جلسـاتنا كمـا أنهـا دخلـت بمرحلـة اكتئـابٍ حـاد لا تأكـل ولا تشـرب وأراهـا شـاردةً فـي معظـم الأحيان

حتى أصبحت أخاف فقدانها.

ياسر

اسـتمر اليـأس لأيـام وأنـا أهـدّئ مـن روعـي غـداً تنسـى وتعـود رزان التــي عرفناهـا ولكنهـا فـي كـل يـوم تـزداد شـحوباً وأرقـاً فـأتعبني هـذا وآلمنــي إلــى متــى يــا الله مــا هذا الحال الذي وصلناه؟

قد عانينا الانتظار ومن ثم جاءتنا فاجعة الفقدان لأعز الناس على قلوبنا واكتئاب رزان الذي يزداد مشكّلاً خطراً على حياتها وبعد هذا كله بدأ القصف يقترب فتهتز جدراننا وتتفتح أبوابنا عند كل انفجار

كثر همي وثقل حملي ما الذي أفعله يا الله

جاءت زينب تبادر بالطلب وأنا ساهمٌ بالفراغ فقالت

-مساء الخير سأحدثكَ بشيءٍ يقلقني

لم أنبس ببنت شفة فرفعت صوتها وهي تناديني

- يااااسر هل أنت معي؟ سأخبرك بأمرٍ خطير

وهزتني بيدها الباردة لأصحى من شرودي فانتبهتُ لها قائلاً

-ما بك أفرغي ما بجعبتك واعذريني فقد كنتُ مُنشغلاً بوضع رزان الصحي أراه يسوء يوماً بعد يوم

-لقد وضعتَ يدك على محور القصيد فهذا ما جئتك به

أراها مُتعبة من كل شيء منذ وفاة أخيها حتى الآن لم تأكل إلا بضع لقيماتٍ معدودة على الأصابع ولا أرى لحالها تحسن

-أعرف هذا جيداً إذ عزمتُ على مغادرة الحي كي يتحسن وضع رزان وتهدأ الأحوال هنا قليلاً ولكن ستة أولاد أين نذهب بهم ومن يفتح لنا بيته

هنا أعمل بالمدرسة إن خرجنا كيف سأعمل، ثمة حلقةٍ مفقودة تحيرني فتوصلني لطريقٍ مسدود لتعيدني للبداية مجدداً

-لا أدري ولكنني أخاف القصف وأخشى أن يأخذ أحد أولادي من حضني كما أنني أحزن على رزان التي لم تخرج من غرفتها إلا مرة واحدة فقط بعد رحيل محمد فعادت وقد ساءت حالتها وازدادت مأساتها

-ما الحل فكري معي؟

-بيت أختي في إدلب ما رأيك أن نزورهم ونمكث أياماً بينهم ريثما تهدأ الأصوات والضربات هنا وتستقر حالة رزان وأنا على يقين بأنها ستتحسن مجرد أن ترى خالتها وتفضفض لها فهي تحبها منذ الصغر كما أن منطقتهم آمنة وهادئة والعيشة في الأرياف تهدئ النفس وتبعث الطمأنينة فيها

-سأروّي في الأمر ولن يحصل إلا الخير بإذن الله

رزان

استيقظتُ بعد أيام وشعرتُ بأن كل شيء كان يدور من حولي

ذهبتُ لأخبر صديقتي شغف بما جرى مع شقيق روحي محمد لكنني لم أرَ حذاءها على الباب وقد تعوّدت أن تتركه مرمياً وتدخل البيت حيث كانت تصل كل يوم منهكة لا تقوى على إدخال حذائها

دققتُ البـاب ففتحـت والـدة شـغف وهـي تلـبس الأسـود فاحتضـنتني وراحـت تبكـي بـين ذراعـيّ كطفـلٍ صـغير وجد أمه بعد زيارتها الطويلة بعيدةً عنه

أهلاً ابنتي

-ما بكِ يا خالتي كل شئ على ما يرام أليس كذلك!!

-بلـى إلا رفيقتـكِ التـي جئـتِ لتسـألي عنهـا فقـد ذهبـت ابنتي الوحيدة بحادث السوق

- مـاذا ح... حـادث. حـادث السـوق أقلـتِ هـذا!! كيـف حصل ذلك

-كانـت هنـاك تشـتري لـكِ هديـةً بعيـد مـيلادك يـا رزان لكنه جاء ولم تُقدم الهدية فقد دُفنت مع صاحبتها

- لا تقوليهـا يـا خالـة شـغف تبحـث لـي عـن الهديـة الأجمـل...لا لـم تمـت.... هـي فقـط تفكّـر كثيـراً قبـل أن تختار الهدية وهذا ما يؤخرها دوماً

- لا بـل استُشـهدت يـا رزان شـغف تركتنـا لنحتفـل وحـدنا، لـن تحضـر شـغف ولا هـديتها مـيلاداً جديـد فقـد ماتت

- لاااااا..... هـذا يكفـي هنـاك خطـأ مـا لا بـد أنـه الخطـأ لا شيء غيره

أخي وصديقتي يا الله

أخي وشغفي فصبرني يا الله

تعب هذا القلب فسكنه برحمتك يا ربي

سمعتُ صوته الدافئ من الداخل الدكتور نضال ينادي زوجته

-هيا أعدّي نفسك لننطلق فرحلتنا طويلة وشاقة

-إلى أين يا خالتي؟

-ألمانيا كما تعلمين يا رزان عمكِ نضال يدير عدة مشافي في ألمانيا

ولا يزورنا في السنة إلا بضعة أيام

فالآن جاء موعد رجوعه

-وأنتِ ستسافرين معه

-نعم سأفعل فقد أصرّ أن ألازمه بعد وفاة ابنتنا الوحيدة إذ لم يبقَ لنا نحن الإثنين سوى بعض

-ألا يكون الطريق خطير في هذه الظروف!!

-لا لا فنحن سنذهب باستدعاءٍ من نقابة الأطباء في ألمانيا

في بداية الطريق سننتقل بحراً لمنطقة قريبة من هنا وبعدها تقلّنا طائرة ألمانية إلى هناك

-تمام أسأل الله أن يوصلكِ وإياه بصحةٍ وسلامة

احتضنتُ والدة شغف التي كانت بمنزلة أمنا وتركتها تلملم ذكرياتها مع ابنتها شغف وصديقاتها

وبطريقي للمنزل تخيلتُ نفسي مخرجةً لعرض تلفزيوني حزين وحين تأثرت وقبل أن تنزل دموعي فأفقد شيئاً من هيبتي ووقاري أمام القائمين على العمل صرختُ بالمصوّر

- قف يكفي هنا دعنا نأخذ قسطاً من الراحة ونكمل فيما بعد

وحين وصلتُ إذ ارتطم نظري بباب منزلنا فصحيتُ على نفسي لأجدني هنا في الواقع نفسه وسمعتُ دوي الانفجار ففتحتُ الباب وركضتُ إلى غرفتي فبكيتُ واقعي وجرحي فالصدمات جاءتني واحدة تلو الأخرى

ياسر

شعرتُ فجأة بحب الانتماء والجذور التي يصعب اقتلاعها وأعرف تماماً هذه الأصوات كما أحفظ بدايات الحروب عن ظهر قلب وأدرك أنها متى اندلعت فإنها لا تنطفئ قبل أن تودي بالمدن التي تختارها فتقتل أبناءها وتهدم المدارس والمشافي والمباني الأمنية لا تترك شيئاً بعدها سوى مَن كتب له الله أن يعيش أكثر ويحمل آلاف الندبات والحسرات

أراني حائراً فأقدم قدماً بطريق الخروج لتشدها الأخرى وترجعها فأتشبث بالأرض ثابتاً

إلا أن ضرب صوتٌ مخيف أذني قلبي إنه دوي انفجار أو صاروخ وربما برميل يصعب تحديده بالاسم

كمـــا أن مشـــهداً رهيـــب الأســـى اختـــرق عيـــون قلبـــي أولادي هنـــاك وبيتـــي الكـــل تحـــت الأرض والركـــام جـــاثمٌ فـــوقهم أمـــا أنـــا فكنـــت جالســـاً أعلـــى القمـــة التـــي كوّنـــهـــا البنـــاء إذ هُـدم تباعـاً، أرانـــي مبتســـماً والدمعـة فـي أحـداقي ربمـــا جُننـــت لوقـــوع الحـــادث فـــي بيتـــي وفـــراق عـــائلتي كاملـــةً ومـــا صـــحيتُ إلا حـــين وجـــدتُ نفســـي أصـــرخ مـــن أعماقي أنادي رزاااان.... زينب ..... أولادي

لأراهـم يحضـرون أمـامي كلهـم حتـى رزان التـي أغلقـت بـــاب غرفتهـــا لأيـــام ورفضـــت أن نقاســـمها حزنهـــا ونشاركها الألم الذي يسكنها

هـزتْ زينـب رأسـي بيـدين راجفتـين وبسـرعةٍ بالغـة كمـا أن كوباً من الماء البارد جاءتني رزان به وقالت

-تفضل أبي عساكَ بخير؟

فتناولته زينب وهي تبكي وتسألني

-ياسر ما بك أتعاني من ألمٍ ما؟

أخبرنـــي: ولـــم أنـــبس ببنـــت شـــفة رغـــم إلحاحهـــا والتـــفّ الأولاد حولي لتنادي أبي أبي رد علينا

صـــفعتني زينـــب برشـــفات المـــاء علـــى وجهـــي الشـــاحب وســـقتني لتـــروي مـــا تصـــدع مـــن عروقـــي وجـــف مـــن أحشائي

وأخيـراً حاولـتُ فهـم مـا جـرى حلمـاً شـنيعاً فـي اليقظـة نتيجـــة الخـــوف الـــدائم والأخبـــار المؤلمـــة التـــي تتـــواتر

بوصولها إلينا وحتى المشاهد التي حضرنا بأنفسنا وجاءني طيف محمد يقول: أرجوك يا أبي ابتعد

-حسناً سأبتعد قليلاً فلتهدأ روحك الطاهرة ونفسك البارّة

-نظرتُ بعيني رزان وتحسستُ يدي زينب الباردة فلامستها وأنا أقول

-حضروا أنفسكم لنذهب بعيداً ونروّح عن أنفسنا ريثما يهدأ هذا اللعين ويوقف القصف.

فيحاء خالتكم في إدلب ما رأيكم أن نزورها

-فوافقني الأولاد حيث أحبوا منذ صغرهم هواء إدلب ومراحها كما يشتاقون دائماً لزيارة خالتهم الصغيرة التي تزوجت شاباً من ريف إدلب "سرمين" فسكنت معه

وزينب أيضاً رحبتْ بالفكرة مع غصة

فقد اعتادت أن تأخذ أولادها جميعاً وعلى رأسهم محمد أما الآن فالزيارة مختلفة زيارتنا هذه أشبه بالنزوح لمدةٍ لا نعرف أين ومتى ستنتهي

ولكنهم سارعوا لتحضير أنفسهم ونزلتُ لأجهز سيارتي ونسافر بها تذكرتُ الزيارات السابقة حين أرسلُ محمد لشراء الحلويات التي سنحملها معنا لبيت خالته بينما أكون أنا واقفاً على باب الفرن فأشتري لهم الخبز الحلبي الذي يلتهمونه كما لو أنهم يذوقون الخبز للمرة الأولى وفي كل مرة يخبرني عديلي

طريف بأنه لم يذق كنكهة خبز الشهباء قط المعجون من الدقيق الذهبي وبيدين مبسوطتين لتنتج هذا الطعم المميز

رزان

أخبرنا أبي أننا سنسافر إلى إدلب حيث تسكن خالتي الحبيبة فيحاء مع زوجها طريف وابنتها شهد كان القرار محتوماً من قِبل أبي وأمي لكنني لا أحبذ لقاء أحد في حالتي هذه كما أنني أكره أن أترك كل شيء وراء ظهري وأمشي

بيتي وصديقاتي وحلمي الذي أودعه تحت وسادتي في كل يوم

على كل حال فإن أبي لم يسألني عن رأيي بل فرض عليّ أن أتجهز للرحيل حالاً كما فعل مع أمي وأخوتي إلا أنهم تقبّلوا الفكرة ورحّبوا بها أكثر مني فأنا لم أعد أشتهي شيء بعد فراق أخي وشغف حتى إدلب التي عشقتُ خضرتها وترابها منذ القِدم

لكنّ أبي أراد ذلك كي أعطي فرصةً جديدة وأطلق عنان أحلامي وأعيد تشكيل ذاتي من جديد فأوافقه بتلك النقطة لا بد من إنشاء فتاةٍ أخرى غير تلك التي تحطمت وصارتْ أشلاءً بين حلمها ورفيقاتها وماضيها بالكامل الذي يحاول الحاضر الغائب أن

يمحـــوه وذلـــك بأصـــوات القصـــف والـــروائح الكريهـــة المنبعثة من الأسلحة

لا بـد مـن إعـادة النظـر فـي بنـاء واحـدةٍ أخـرى علـى أثـاث هذه الموجودة الآن في اللاوجود

ولكننـــي الآن مقيـدة الفكـر والأيـدي لا أقـدر علـى فعـل أي شـــيء حتـــى النســيان جربتـــه ولكننـــي لـــم أنـــسَ ولا أظـــن نفسي سأفعل في يوم من الأيام الآتية

زينب

حزمـــتُ الحقائـــب وأغلقـــت صـــنابير المـــاء بإحكـــامٍ كمـــا فعلـــتُ مـــع بـــابَي الغرفـــة الداخليـــة أمـــا بقيـــة الغـــرف فأبوابها تأثرت بالانفجارات المتواصلة

قبّلت الجدران وأنا أردد سنعود قريباً

لملمـتُ أشـيائي المبعثـرة فحملـتُ النقـود مـع صـورة ابنـي محمـد فـي يـد وأمسـكت يـد ابنـي بـالأخرى أمـا رزان فقـد تـأخرت فاسـتعجلها ياسـر منادياً -هيـا يـا رزان مـا بـك فلننجو من ضرباتهم.

-لا شيء يا أبي ولكن...

- أسرعي تخبريني في الطريق

-أبي أريد أن أرى براءة وأودعها

-لا نملك الوقت سترينها فيما بعد إن كتب الله ذلك

تلعثمتُ قبل أن تقول

لا أريد الذهاب معكم

فشدها من يدها وأنزلها بخوف بينما كانت القذيفة تسقط فنزل سقف المطبخ مهدوماً والدخان خنقنا جميعاً لولا لطف الله الذي أنزله ليغيثنا وقد كتب لنا العمر

فتح ياسر باب السيارة وقد تكسر زجاجها وأدخل رزان التي دارت بها الدنيا من حولها وزاغ بصرها فشخصت عيناها وقد أخافني وضعها ولكنها تتنفس والحمد لله

-هكذا صرخت من الخلف وقد أجلس ياسر الأولاد جانبي ووضع الحقائب على الكرسي المجاور له

أشعل سيارته وانطلق وراحت القذائف تتقارب

-الموت قريبٌ يا ياسر

- لا تخافي حبيبتي انتبهي للأولاد

-رزان فاقدةٌ وعيها والقصف يزيد

-اهدئي واسكبي من الماء على وجهها

-عن أي ماءٍ تتحدث لم يكن معنا شيئاً منه

- كيف..... سفرٌ بلا ماء في حالة السلم كنا نأخذ معنا ماءً فالطريق طويل

- تذكرت هذا ولكنني لم أجد نقطةً واحدة نأخذها بطريقنا أنسيتَ أنهم قطعوا الكهرباء فالماء

وأنا أذكره بفقدان الماء

ووو.....

علا صوت الطائرة ونفذتْ خلفنا فجاءت الشظايا إلى سيارتنا لكنها لم تتوقف والحمد لله

مَن توقفت هي قلوبنا فقط قد انقطعتْ من أثر الرهبة وبال سميرٌ في ثيابه فراح يبكي

- اهدأ يا حبيبي سنصل بعد قليل ويختفي هذا الخوف

لم يرد عليّ

أما رزان فقد عاد وعيها ولكن الإرهاق ظل ملازماً لها

ياسر

أثناء قيادتي واجهتُ الموت والخطر وما كان لي أن أظهر القلق لزينب فقد رأيتها خائفةً متوترة

وفي آخر شظية دخلت محرك السيارة توقفت عن العمل وما كان بوسعي أن أفعل شيئاً والرصاص يأتي من كل الأطراف

شعرتُ بماء يغلي في رأسي

ازداد الخوف والحزن والآن ما الذي أفعله

صاحت زينب: ما الذي يوقفك أكمل بالله عليكَ أن تكمل

- هدئي من روعك لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

- ونعم بالله أولادك يا ياسر أولادك

- سننجو بإذن الله

حاولتُ بالإقلاع لكنها ثبتت بالأرض

وعرفتُ أن الأمل منها مقطوع

فأنزلتُ الأولاد وأسندت رزان أما زينب فقد كانت صاحية الزهن أكثر مني حيث عرفت أننا سنتابع بدون السيارة فحملت حقيبة المال مع سمير وركضت بهم وكان من دوري أن أحمل شيماء وروان بين ذراعي وأنظر رزان ومعها أخويها خالد ومُنيب ركضنا جميعاً وبعد ابتعادنا بأمتار نفذت اللعينة سمومها فالتفتُ وما يزال الصوت يدوي في أذني لأرى النار والدخان ينبعث من السيارة

فصرخت رزان محمد صورة محمد

-معي هنا لا تقلقي هو في مكانٍ أكثر أماناً من هنا رحمه الله

قالتها زينب بحسرة ويأس

وتابعنا الركض كما تابعوا قصفهم

فقال خالد بتعبٍ شديد: تيبّست عروقي يا أبتِ لقد عطشت.

-سنصل يا ولدي اصبر فأنت رجلٌ قوي صلب أليس كذلك

ازداد العرق على وجهه كما ازدادت زرقة شفتيه

- أبي أبي

-قم يا خالد لقد اقتربنا من الماء اصبر فقط

بلع ريقه وأخذ شهيقه منحى مختلف فراحت ضربات قلبه تتسارع بشكلٍ مرعب

-خالد لا تستسلم هيا أيها الشجاع

وعندما رأيتُ حالته متأزّمة أنزلت شيماء وحملته فلفظ آخر أنفاسه على كتفي

وعرفتُ أنه لحق بأخيه لكنني آثرتُ أن أتركها في نفسي ريثما نجد مأوى لنا ويزول الخطر علينا

ونحن مارين بالطريق وقد ابتعدنا عن هدفهم قليلاً فتباعدت الضربات وانخفض صوتها وإذ بحافلةٍ كبيرة مليئة بالناس والأغراض صرختُ بأعلى صوتي

-توقف يا أخي توقف

-الحافلة ممتلئة ألا ترى

-بلى والله قد رأيت ولكنها إغاثة ملهوف ومعي أولاد ونساء

-كم تدفع!!

وقبل أن أجيبه أعطتني زينب كل المال الذي تحمله فناولته نصيبه وركبنا معه ومن أول صعودنا تفقدت زينب الأولاد فقد قلقت بحدس الأمومة الذي لا يخيب وأخذت خالد عني ليميل رأسه على كتفي مجدداً

فراحت تتفقد نبضه ووجدته واقفاً لا حياة فيه فأغمضت عينيها بألم وصرخت يااااااا الله

أما رزان فقد حضنت أخوتها وهي تبكي

خالد ومحمد رحلوا يا رب ألهمنا الصبر ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به

علّقتْ عينيها بالسماء إذ لم تعد ترى فيها إلا الدخان ربما من تراكم الدموع أو كثرة الركام والهدم الذي يخلّف دخاناً وقد يكون ناتجاً من سجائر السائق السفيه الذي

وجه خطابه لي

-لو أخبرتَنا بوفاة ابنك لكنا قمنا بالواجب فالدفع للأحياء يختلف عن الأموات

كم اشتهيتُ أن أضربه ولكنني كظمتُ غيظي فحاجتي عنده ومن أجل زينب والأولاد أوصلنا وبمجرد أن رأيتُ سيارةً أخرى نزلت بعائلتي متجهاً نحوها فأدخلتنا سرمين ووصلنا إلى بيت فيحاء

فأمنت على أهل بيتي عندهم في المنزل وذهبتُ مع طريف لندفن خالد

رزان

دخلتُ بيت خالتي مصطحبةً

معي شيماء ومنيب أما أمي فأدخلتْ معها سمير وروان

وتعانقت مع خالتي فأطالت الأخرى من احتضانها

ركضتْ ابنتها شهد وضمتني إليها لكنني لا أشعر بشيء لا حزن ولا ألم لا دموع ولا نحيب كنت في صدمةٍ ودهشة

كيف حدث هذا كيف يمكن لأخوتي ورفيقتي أن يتركوني.

شعرتُ بكفَّي شهد على ظهري لكنني لم أقابلها باللهفة ذاتها.

وبقيتُ هكذا ثابتةً في مكاني وكأنه الخرس أصابني، راحت أمي تحكي لخالتي وابنتها عن استشهاد محمد أولاً وزيادة القصف ثانياً وأخيراً أحدث الأحداث موت أخي الصغير خالد

فنظرت خالتي إليّ وقد عذرتني فقالت لابنتها لا تتركيها وحدها يا شهد فهمها كبير وحزنها شديد حيث كان محمد وأصدقائها كل شيء بحياتها

زينب

بقينا في بيت أختي وزوجها حيث وجدتُ فيها السند والدعم وكأن الله سخرها لي لأصبر على رحيل ولدَي وابتعادي عن مدينتي فأعانتني بفضلٍ من الله على النهوض مرةً جديدة، أما ياسر فقد تماسك هو الآخر فحمد الله على كل شيء وبدأ العمل كمدرس لطلاب المرحلة الإعدادية بمدرسةٍ صغيرة في سرمين بالقرب من بيت أختي كما أنني ألحقت أولادي بالمدارس إلا رزان التي لا تتيح لي الفرصة أن أحكي معها وتطمئنني شهد على حالتها فهي قريبةٌ منها كما أخبرتني بأنها ستداوي جروح رزان بطريقةٍ سحرية وماهرة ما عليّ إلا الانتظار.

رزان

ظلّت شهد ترعاني لأيامٍ عديدة إذ شعرتُ بالتعب والإرهاق وانهارت أعصابي فتحمّلت لحظات هدوئي وعصبيتي وبكائي الهستيري حديثي المتكرر عن صديقاتي

كان لشهد قلبُ أمٍ رؤوف حيث أبت أن تدعني ووحدتي وظلت تسايرني وتواسيني كل الوقت رغم عمرها الصغير فهي تصغرني بسنوات لكنها أكثر مني أملاً وعطاءً ربما لأنها لم تمر بما مررت.

وحين سألتها عن سبب الابتسامة الدائمة على خديها حتى وأنا أصف لها مشهداً مأساوياً من تلك المشاهد التي عشناها أجدها تبتسم وتخبرني ستصير ذكريات وسنعيش ما ينسينا مرارها أما مَن تركونا فقد سبقونا إلى الجنة

أخبرتها أنها تتحدث كالكبار وكأنها منهم فابتسمت وقالت إنه الإيمان يا رزان وتحدثت بالطريقة التي تتحدث فيها براءة

فذكرتني بها لأقول في نفسي

أين أنت يا براءة أتراكِ قدرتِ على الأمل من بعد أخيكِ كما لم أقدر لكنني سأقدر لأجله ولأجلي ولأجل كل مَن حولي

-شهد أنت في الصف الثامن أليس كذلك

-نعم الثامن ومدرستي جميلة

قالتها لتجذبني وتثير اهتمامي وقد نجحت

-تُرى أيمكنني أن ألتحق بها وأكمل ثانويتي؟

- أحقاً ما سمعته أذني، إن كنتِ متأكدة أسأل غداً مديرتنا

- ما بك تحمستِ سأحاول النهوض من جديد وربما أفشل

-بل ستنجحين

-شـهد ألا يكـون محرجـاً طلبـي أن تحضـري لـي دفتـراً من عندك حتى لو قديم لا مانع وحبذا لو معه قلم

- لا يـا رزان محـرجٌ هـذا ومكلـف أسـأل لـكِ صـديقاتي فـإن وجـدتُ واحـداً عنـدهم لا يلـزمهم آتيـكِ بـه وإن لـم أجد فوكلي أمركِ لله وهو حسبك

هههههـه قهقهنـا معـاً فـآلمتني شـفتاي هـا لقـد نسـيتْ الضـحك حتـى الابتسـامة لـم تزرهـا بعـد وقـوع أول كارثـة برحيل محمد

شهد

عنـدما بـدأتُ بتنفيـذ خطتـي مـع رزان كـان هنـاك شـعور الخـوف يلاحقنـي ربمـا أفشـل فـالحرب اللعينـة خرّبـت مـا بـداخلها وفقـدان أعـز النـاس علـى قلبهـا تـرك بعـده فجـوةً سوداء

فـي بدايـة الأمـر كانـت رزان تضـع الحـواجز بيننـا وتختلـق المسـافات والحـدود بـالرغم مـن أننـي قاسـمتها غرفتـي فتشـاركنا فيهـا وكـان لهـا مثـل الـذي عنـدي إلا أنـها تمتنع عن مشاركتي لها في أحزانها

كلّمـا أفـتح حـديثاً تـرد باقتضـاب وسـرعان مـا تغلقـه بشرودها

لكـنّ مـا تعلمتـه بفضـل الآنسـة أسـماء التـي تدرسـني علـم الأحيـاء مـن الإصـرار والعزيمـة والتشـبث كـان سـيفاً أضرب فيه اليأس والتردد والخوف

حسناً سأحاول وفي كل مرة أراها تتحسن بالتدريج حيث صارت روحها مطاطية وأكثر مرونة

وما وجدتُ هذا التطور إلا بعدما صارت تفتح الأحاديث معي وتناقشني

فتحكي لي أحياناً عن أخويها الشهيدين وتصف لي الرحلة القاتلة لولا لطف الله وكثيراً ما روت لي أشكال صديقاتها وتصرفاتهم ومزاحهم واحدة واحدة كما أنها أخبرتني بحلمهن في بناء مشفى خاص بهنّ يساعدْن من خلاله المحتاجين وذويهم

وحين وصلت لفتاة سمتها لي شغف امتلأت عيناها دمعاً فحضنتها وأخبرتها بأن الحلم سيتحقق وشغف لن تموت إلا بموت حلمها فمتى يتحقق حلمها تحيا في أثرها الذي تركته والنفع الذي خلفته وصديقاتها لن يتركوها تموت وحلمها أليس كذلك

-بلى والله لن أتركها بل سأفعل المستحيل كي أصل لحلمي وصديقاتي

ابتسمت وعانقتني من جديد

- الحمدُ لمَن جمعني بكِ يا شهد

ياسر

بعد أن دفنتُ ابني خالد تحت التراب بكلتا يدي شعرتُ بالقوة وكأنه مات لأعيش

نعم هذا ما يصح في الحروب يموت أشخاص ليحيا غيرهم بشكلٍ أفضل وأقوى عشتُ من أجل خالد ومحمد عشتُ لأحمل قضيتهم في حقيبتي وذاكرتي أينما ذهبت

شعرتُ بقوة أبطال الروايات التي كانت أمي تقرأها لحفيدها الأول محمد أمامي وكل دقيقة ينظر إلي إنه البطل الشجاع سينتصر أما بطلي فأنت رغم صغر سنه إلا أنني كنتُ أرى الدنيا بحلاوتها من خلال كلماته تلك

والآن صرتُ أكثر إصراراً على المواجهة سأكون بطلك الحقيقي يا محمد، سجلتُ اسمي في مدرسة لأبدأ في التدريس ولكن ثمة شاغرٍ وظيفي لم يكن هناك فانتظرتُ حتى أرسلوا بطلبي

وبدأتُ عملي في المدرسة الجديدة براتبٍ مقبول وعملتُ على إيقاظ المعلمين والطلاب كما سلّطتُ الأضواء على نقاطٍ صغيرة لم تتضح لهم بعد وشرحتُ لهم سياسة الأعداء فتشجع الشباب وثاروا حتى تظاهروا في الشوارع ورفعوا الرايات وراحوا يدعون لدفع الظلم ويقنعون الناس كما فعلتُ معهم

لكن ثمة سلطةٍ لن تراهم فمَن هؤلاء بنظرها بضعة شبانٍ ثائرة وهائجة لا داعي للخوف منهم

بعد انتهائي من العمل وانصرافي عدت بطريقي إلى المنزل فقصدت أبا فيصل بائع الفول في سرمين واشتريت من عنده وإذ به طريف يستعجلني فالطعام جاهزٌ من ساعتين هكذا أخبرني

وصلتُ وإياه المنزل وتناولنا الغداء جميعاً وقد أعجبتني حالة رزان فقد تحسنتْ كثيراً وصارت تجلس معنا لتناول الغداء وهذا شيء رائع

قالت شهد بحبور: عمي ياسر سأخبرك شيئاً هام

-هيا قولي ما عندك، تفضلي يا ابنتي

-عمو... لقد قررت رزان أخيراً أن تكمل دراستها الثانوية

انفرجت أساريري كما برقتْ ملامح زينب حين سمعت الخبر من شهد يبدو أنها تسمعه للمرة الأولى

التفتُّ لرزان مذهولاً بذكاء شهد وسحرها ومسروراً لا أصدق ما سمعته أذني

-ماذا !!أصحيحٌ هذا يا رزان أخيراً تقررين أن تحققي حلمنا

-بلى يا أبي صحيح وشهد فتاةٌ مهذبة وخلوقة لا يُعقل أن تكذب أليس كذلك

-كذلك يا حبيبتي أسأل الله أن يحميكِ لي.

قالتها زينب وروحها تحلق فرحاً فوق المائدة وبين الحاضرين

فأكملت رزان

ـــلكن شـــهد ســـألت مـــديرتها وأخبرتهـــا أن مدرســـتهم للمرحلة الإعدادية فقط ولا يمكنني الدوام فيها

- أسـأل مـدير مدرسـتنا إن كـان يعـرف مدرسـة إنـاثٍ ثانوية

وستدخلين المدرسة أيتها الطالبة الذكية من جديد

ـوألملم مـا تبقـى مـن التركيـز والفهـم علّـي أفلـح وأحقـق الحلم

رزان

وبعـد أيـام أحضـر لـي أبـي الأقـلام والكتـب والتحقـتُ بمدرسـةٍ بعيـدة عـن منـزل خـالتي بعـض الشـيء إلا أننـا فضـلنا البقـاء معهـم كمـا أنهـم اسـتنكروا فكـرة أن نسـكن وحدنا تماماً

وفـي يـومي الدراسـي الأول حاولـتُ أن أتجـاوب معهـم ولكن القليل فقط ما علق في ذهني المشتت

لأدخـل لغرفتـي بعـد رجـوعي لبيـت خـالتي فـأبكي وأنـا أتـذكر كـلام شـغف وإلحاحهـا علـى تحقيـق حلمنـا، أتـذكرها وهـي تأكـل، وهـي تقـرأ، وتبحـث عـن الأعشـاب،

كانت شغف فتاة رائعة خارجة عن مجال الوصف وكانت الصديقة الصدوقة بالنسبة لبراءة وأمل ولي أيضاً أحبتني كما أحببتُها وتعلقتُ بها فعليّ أن أحقق حلمها الذي لم تستطع أن تحققه بنفسها

وحلم أخي في أن أصبح طبيبته المشهورة التي تعالج الناس دون أجرٍ مادي وإن كان فلا يرتفع كما هو الحال عند بقية الأطباء

يجب ألا أيأس ولا أستسلم

فنفضتُ رأسي ورتبتُ أفكاري فأحكمتُ مشاعري

كما أزلتُ آثار البكاء بقوةٍ لأذهب وأجهز نفسي لدوام المدرسة في اليوم التالي ذهبتُ أقرأ في الكتب وأقلب صفحاتها

وحين تعبت أخرجتُ الدفتر البنفسجي الذي أعطتني إياه شهد وكتبتُ عن أول يومٍ في الدراسة بعد الحرب التي لم يكن بعدها بعد

لم أصادق أي أحد ولكنني كنت أدرس جيداً حتى أتمكّن من البحث عن صديقاتي يجب أن أحقق حلمي الجامعي أولاً فهو سبيلي وبوصلتي إليهم

وكـأن مـا حـدث صـار ليحفزنـي لكـي أعـود للكتابـة التـي ألجأ إليها في أصعب الظروف فهي ملاذي السرمدي

وصـرتُ أكتـب علـى عـدة مواقـع والحمـد لله لقـد وصـل كلامـي للكثيـر مـن النـاس فـأثر فـيهم حيـث كتبـت قصـص وكتـب وكنـت أنشـرها علـى الأنترنـت وكنـت أضـيف مأسـاتي وأحكـي عـن منطقتـي المـدمرة بالقصـص كنـت أحكـي عـن المعانـاة التـي يعيشـها الجميـع لهـذا دخلـت كتاباتي صميم قلوبهم.

وأذكـر مـرة بعـد رجـوعي مـن المدرسـة وفـي قاعـة الطعـام تناولنـا الغـداء جميعـاً فقـال طريـف زوج خـالتي وهـو يسـكبُ الأرز فـي صـحنه والـذي كـان يعمـل لـدى صحيفةٍ شهيرة

ـما رأيـك يـا رزان أن تعملـي معنـا فـي الصـحيفة فقـد عرضـتُ كتاباتـك علـى مـدير الصـحيفة فأعجبتـه وطلـب منـي أن أخبـركِ بأنـكِ تقـدرين علـى مسـاعدتنا إن شـئتِ وغير ذلك ممكن أن تكتبي هنا في البيت

رحبتُ بالفكرة وابتسمتُ بأمل

ليقول والدي

ـفكرة جيدة يا ابنتي وبهذا ستكتسبين الخبرة

وأكملت أمي

ـكيف لها أن توفّق بين دراستها وعملها معكم

فطمأنتها بقولي

-لقد أعجبتني الفكرة وأريد أن أعمل إلى جانب دراستي ولا مانع يا أمي فابنتكِ تفعلها وتستطيع إن شاء الله

كما هنأتني خالتي فيحاء: هذا رائع بالتوفيق يا رزان

وأنهى طريف حديثنا بقوله

-إذاً هيّئي نفسكِ سأمر على مدرستكِ غداً بحلول الساعة الواحدة لننطلق إلى المدير ويراكِ شخصياً.

-إن شاء الله يا عمي

فانتهى هذا اليوم بأن أتجهّز للقاء الأستاذ محسن المدير

محسن

روى لي الأستاذ طريف موظفٌ في الصحيفة التي أديرها قصة الفتاة الكاتبة الذكية من أول لحظةٍ عاشتها بموت أخيها وحتى وصولها مع أهلها إلى بيته حيث سكنت معهم في البيت

كما أطلعني على العديد من كتابتها فأدهشتني جزالة ألفاظها وذهلني أسلوبها فسهرتُ ليلةً كاملة حتى أذان الفجر وأنا أقرأ خواطرها لديها أنامل ساحرة وزهنٍ صافي لن تلوثه الحرب بإجرامها

ازددتُ رغبةً وحماساً لرؤيتها وتمنيتُ أن أساهم بخطواتها الأولى وتبدأ بالعمل معنا فنحن بحاجةٍ ملحّة لفكر الشباب فأرسلتُ للأستاذ طريف طلباً ليأتيني بها وأنظر في أمرها

وبعد يومين طُرق البابُ ظهراً فناديتُ بصوتٍ عال

-تفضل

دخل الأستاذ طريف ومعه رزان فأحببتها من الوهلة الأولى مظهرها هدوؤها لباقتها في الكلام وخجلها وسرعان ما تذكرت فيها ابنتي سعاد التي توفيت قبل أعوام بالسرطان الخبيث

-السلام عليكم هذه رزان يا أستاذ

قالها الأستاذ طريف والتفتّ إليها ليعرفها عليّ

-الأستاذ محسن مديرنا سيساعدك في أي شيء فهو إنسانٌ رائع

والآن أترككم معاً وأستأذن أنا فلدي عملٌ كثير

-خذ راحتك يا أستاذ

-كيف حالكِ يا رزان أراكِ جميلةً يا ابنتي ككتابتك

-شكراً أستاذ هذا من لطفك

-سنبدأ بالمهم أراني الأستاذ طريف كتابتك فأحببتها ما رأيكِ أن تعملي هنا

-أخبرني بذلك وقد وافقت فهذا عرضٌ مغري للغاية وتحمّست للعمل هنا فسوف أكون عند حسن ظنكَ إن شاء الله

-أنا على يقين أنكِ ستبدعين كعادتك، ستعملين مبدئياً في البيت وسنتابع معك حتى تواظبي بين دراستك والعمل

-حسناً ولكنني أريد أن أستفسر عن بعض الأمور

-على الرحب والسعة يا رزان تفضلي

-متى سأبدأ، وكيف سأكتب أتمنى أن تملوا عليّ بالأفكار والأحداث وأسوغها بطريقتي كما أرغب بكتابة رأيي في المواضيع فما يخالف قناعتي ومعتقدي لن أبدع فيه

-طبعاً يا رزان سنرسل لكِ مقاطع مصورة فتحولينها بدوركِ لمقالات إذ يصعب عليكِ أن تنزلي بالحدث على أرض الواقع

أومأت لي بالموافقة مع حياءٍ شديد

-سأقدم أفضل ما عندي بإذن الله فقط انتظر وستقرأ ما يروق لك ويعجبك

فقلتُ بابتسامة.

-بالتوفيق يا رزان

رزان

عندما قال لي المدير بالتوفيق شعرت أن هذا اليوم هو الأول في بداية المشي بطريق حلمي ويجب أن أبدأ من جديد بالرغم من أنني خسرتُ شغف ومحمد وخالد للأبد ولكن مَن ظل معي يستحق المثابرة حلمي ورفيقاتي أمي وأبي وأخوتي الصغار سأصل إلى ما أريد وأسعدهم بإنجازي وحتى هذا سأبقى أحاول وأجتهد

وبعد فترة كنتُ أدرس ما أخذته من دروسٍ وواجبات فجاء زوج خالتي طريف وقال: رزان ستجدين على الإيميل الخاص بي في حاسوبي عدة مقاطع عليكِ أن تشاهديها وتكتبي عنها، حالما تنتهي منها أرسليها إلى نفس الإيميل

-حسناً سأذهب لأعمل بها الآن بما أن دراستي قد انتهت لليوم

ذهب وأحضر لي حاسوبه ففتحته لأدخل على الإيميل وأشاهد المقاطع كانت مقاطع مؤلمة تصوّر الهجوم وصراخ الأطفال وأباً ينقذ ابنه ذكرني بأبي فأمطرت عيناي دمعاً حاراً والقذائف مصوّرة وهي تُرمى فوقهم، كل شيء كان يُدمر حقاً

فأخذتُ ورقةً وقلماً من حقيبتي لأكتب

هل سيظل هذا الغيهبان مسيطراً على سماء دولتنا؟!

هل سيكون المطر ناتج من دماء الأبرياء والشهداء؟!

والرعد ناتج من صراخ هؤلاء الأطفال؟

هل سيتحمل طفل صغير الحرمان من نبع الحنان والحضن الدافئ؟!

هل سنكون ذاهبين لقدرنا ونحن لا نعرف لنموت بسبب رصاصة أو قذيفة فنروي هذه الأرض من دمائنا.

بقيتُ هكذا أكتب وأكتب ودموعي تساهم في ملء الصفحات فما أصعب وضع الواقع الأليم على السطور كتبتُ مقالات عن هذه المقاطع حتى انتهيت فأرسلتها للإيميل ودخلت لأنام فيومي التالي في المدرسة متعبٌ وحافل

وفي اليوم التالي بعد خروجي من المدرسة وجدت اتصال من رقمٍ غريب والكل في الخارج فرفعتُ سماعة الهاتف لأرد وأقول

-السلام عليكم مَن معي

ليقول الطرف الآخر

-وعليكم السلام يا رزان أنا أستاذ محسن مديرك بالعمل.

- أهلاً وسهلاً كيف حالك يا أستاذ؟؟

-أنا بخير يا رزان واتصلتُ بكِ لأهنئك على هذه المقالات الرائعة حقاً في كتاباتك سحرٌ خاص تجذب القارئ كما يفعل منظر الفطائر الشهية مع مَن يتضوّر جوعاً.

-شكراً لك أستاذي

-أرجوكِ حاولي أن تأتي للجريدة بأول الأسبوع القادم ولا مجال للاعتذار سنحتفل بأولى مقالاتك وقد نجحت فارتقت بها الصحيفة

-لا داعي يا أستاذ لا تكلّف نفسك فهذا واجبي وأنت لم تقصّر بحقي

ليقاطعني بدوره

-لا لا ستأتي .... لا تنسي موعدنا السبت المقبل ظهراً

-حسناً أستاذي إلى اللقاء

لأنهي الاتصال معه والسعادة تملؤني وذلك لأن درجة اختباري اليوم كانت ممتازة

شهد

أخبرتني رزان بكل ما جرى معها وكان حظها رائعاً في تلك الفترة بين عملها والسعي نحو تحقيق

مستقبلها خطوة بخطوة وظلتْ المتفوقة بتميّز في دراستها الثانوية

مر هذا الأسبوع بين الدراسة والعمل ليأتي يوم الحفل فأخذتني معها حيث تعمل مع أبي وموظفين أُخر أصررتْ أن أرافقها بخطوتها الأولى لتكسر حاجز الارتباك بوجودي معها وقد أنهيتُ امتحاني في اليوم ذاته فكان الحفل ضرورياً لي لأخرج من الجو الدراسي المُميت هكذا أقنعتني

فور وصولنا وجدنا المكان مزيناً بالبوالين والورود الشامية العتيقة رائحة البارفان الفرنسي عبقتْ في أنفي

بينما كنتُ أتلفّتْ وأستكشف وأستطلع المكان بنفسي كما فعلتْ رزان بجانبي جاء الأستاذ محسن فعرفتني عليه وقد حفظتُ اسمه من كلامها عنه رجلٌ ستيني كثير الهيبة قليل الكلام يمتلك من الحنية كماً لو توزع على العرب لانطفأت الحروب وزاد منه

مرحباً يا رزان مبارك مرةً أخرى

-بارك الله بعمر أستاذي وصاحب الفضل

-لا فضل لي عليكِ أنتِ مَن تعبت حتى أنجزت

سألها البعض كم عمرك؟!

-سبعة عشر عاماً

فاجأتهم بعمرها وبراعتها في الكتابة كما فعلتْ مع أبي والأستاذ محسن وأمي أما أنا فلم أتفاجأ بها حيث عرفتُ من خلال أحاديثنا أنني أجلس مقابل مبدعة وكاتبة مشهورة مستقبلاً هكذا كان حدسي يخبرني وها هي بدأت رحلتها.

وسألها غيرهم: ماهي الأجواء التي تناسبكِ في الكتابة، الطقوس التي لا بد منها ليأتيكِ الإلهام الإبداعي

-لا لا أنا لا أحتاج أية طقوس حتى أكتب ولكنني أحتفظ بورقةٍ وقلم في حقيبتي دائماً حيث تأتيني الأفكار مبعثرةً فأرتبها بمفكّرةٍ صغيرة

هذا إن كانت الكتابة الخيالية أما الواقعية التي تصف الهجمات الإجرامية فلا داعي للخيال أن يعمل لا بل أحياناً أحاول تقليل الأحداث الثقيلة المأساوية ليُصدّق عملي الأدبي فلو أردتُ تدوين واقعنا لاستمريتُ سنيناً وأنا أكتب بألم فيراه القارئ كالأفلام الهندية طويلة وبائسة

-آنسة رزان لم تدخلي فرعاً جامعياً بعد فهل تطمحين لدراسة الكتابة بشكل موسع وأكاديمي

-دعكم من طموحي الآن إن غداً لناظره لقريب

ولكنني الآن أكتب لأنني أهوى الكتابة كما يهوى أحدكم غطاءه في الشتاء وأنظر للقلم كما ينظر صائماً في حر الصيف لكأس الماء البارد كما أن ما نعيشه لا بد من تدوينه وإلا لصرنا عبرةً لا قدوة فالتاريخ كثيراً ما يُشوّه

ليدخل فجأة شاب طويل القامة كثير الوسامة حسن المظهر في العقد الثاني من عمره واقترب من الأستاذ محسن ليقدمه لنا

- هذا ابني حسن طالبٌ في كلية الإعلام

-رزان الكاتبة الذكية التي بدأت طريقها من جديد وابنة خالتها شهد

ليقول حسن بترحاب

-مرحباً بك آنسة رزان، تشرفتُ بك أختي شهد

فالتفتُ إلى رزان لألقاها في حالٍ مختلف تماماً عما كان قبيل دقائق بريق عينيها حمرة خديها ابتسامتها الحسناء كل شيء فيها ازداد جمالاً فقد كان اسمه مأخوذاً منه اتساع عينيه اللوزية وخضرتهما بشرته الحنطية المذهلة غمازاته الجذابة وحتى اعوجاج أنفه فيه سحرٌ لطيف وأرى أن رزان شُغفتْ فيه حباً رغم كل ما يمر بها كما رأيتُ هذا عنده فشهدتُ ميلاد حُبٍّ جديد أمام عيني وقالتْ له بتلعثم شديد وارتباك وقد

كانت تتحدث بكل رياحة مع بقية الموظفين وكأنها الكاتبة الكبيرة العملاقة التي أتلفت ستين سنة من عمرها في الكتابة

- مرحباً أستاذ حسن

قالتْ اسمه بطريقةٍ مختلفة فشعرتُ بمخرج الحاء كل ما تعيشه الآن من حبٍ وحرب حرٍ وحياء حلاوة وحياة حسرة على الماضي وحلم تنتظره وحقيقة أمام أعينها وحمامةٌ تحلق داخلها فرحاً لما تراه

ومع السين شعرتُ بسلامٍ داخلي وسيوف مسلولة وسرمين التي ستشكرها حيث عرفتها عليه سماحٌ لقلبها أن ينفتح للمرة الأولى بهذه الطريقة وسحابٌ يمطر داخلها حباً سفرٌ من واقعٍ لخيال سقوفٌ مُهدّمة وسقاية قلبها اليابس

أما النون فقد ختمت فيها نيرانَ الحرب داخلها وبدأتْ فيها نرجساً ونوراً ونوالاً للمراد

حسن

دَخلتُ القاعة الكبيرة فوجدتها مع أبي بجمالها ودلالها فتمنيتُ من كل قلبي أن تكون هي حيث حلمتُ منذ الصغر أن أرتبط بفتاةٍ لعقلها قبل شكلها وقد قرأتُ ما كتبته رزان وذلك لإلحاح أبي في أول الأمر أما حين بدأتُ أقرأ فصار الإلحاح من عقلي الذي أبى النعاس

قبل أن ينهي كل كتاباتها وقلبي الذي شغفته حباً قبل أن تراها العيون لكنه رآها

وعندما عرفني أبي عليهم شعرتُ بنفسي أحلق وأطير للأعلى من شدة الفرح

- الحقيقة أصبحتُ لا أحب التجمعات والمقابلات ولا حتى أن أتكلم كثيراً

-وأنا أيضاً يحصل معي الشيء نفسه تقريباً

أدرس بكلية الإعلام قسم الصحافة حتى أعمل مع أبي وطبعاً يشرفني أن تعلميني

دخلتُ بكل جرأةٍ بصميم الموضوع

-بالطبع يسعدني أن أساعدك بأي شيء أستاذ حسن

جاء الأستاذ طريف مع أبي وقال

-إذاً ستحضر رزان معي كل يوم خميس بعد المدرسة هنا كما سيأتي حسن حتى تعلمه قليًلا

فأجابه والدي

-رائع يا رزان أبشركِ حسن طالب مجتهد وبارع بمجال إنشاء مواقع التواصل على الإنترنت منذ صغره

فهو يحب كل ما يتعلق بالتكنولوجيا ممكن أن يساعدك حتى تكتبي على موقعك الخاص

فقالت بابتسامة شديدة الجاذبية -هذا شرف لي وأتمنى أن يساعدني

رزان

في الحقيقة لقد تراجعت ومن الممكن أن أكوّن أصدقاء عمل فهو شاب مهذب كما رأيتُ فيه أخي الكبير محمد الذي فقدت، وأتمنى أن لو كانت صديقاتي معي

وذهبت للبيت فدخلت غرفتنا الخاصة التي شاركتُ شهد فيها وكدت أنام لأجد شهد تدخل على غرفتي وتقول بحزن

-رزان أيمكنني الجلوس معك؟

قلت لها بحب: بالطبع يا شهد الغرفة غرفتك وضحكتُ بعدها فلاحظتُ احمرار عينيها

، ما الذي يبكيكِ هيا قولي

-أشعر بالوحدة إذ لا أمتلك الأصدقاء

-ولماذا؟!

- لا أعلم أراهم جميعاً يبتعدون عني هل تريني قبيحة

-بل لأنكِ الأجمل هنّ الطالبات في المدارس وخصوصاً في مثل هذه المرحلة العمرية تكثر غيرتهنّ وأنت أيضاً بذكائك وشعبيتك تثيرين الغيرة في قلوبهنّ ولا تقوى إحداهنّ على كبح جماح غيرتها فما الذي تفعله

ابتسمتْ بألم ورفعتْ حاجبيها مع كتفيها

-لا تفعل شيء بل تنأى عني وتتركني لجمالي وعبقريتي.

أحزنني موقف شهد من الفتيات الأخريات وذكرتني ببراءة تُرى كيف حالها الآن

نظرت في عينيّ شهد ورأيتُ فيهما الألم والحزن فتأثرتُ على حالها إذ أُصيبتْ قبل سنوات بحروق في وجهها ويدها زالت الحروق لكنها تركتْ أثراً وراءها رغم جمالها وبراءتها وذلك جراء هجومٍ عنيف ضرب قريتهم فقذفوا بقطع الخشب المشتعل على البيوت كما حاولت خالتي أن تتوصل لشهد وتنقذها وتمكّنتْ من

ذلــك بصــعوبة بالغــة حيــث وجــدتها وقــد أصــابها مــن إجرامهم)

قلتُ لها بحب

_شــهد أنــتِ كــأختي تعـرفين ذلــك جيـداً رغـم أنــي لا أقعـد معـكِ طـويلاً ولا أحادثـك كمــا ينبغـي ولكـن كـل مــا صـرتُ إليــه الآن ومــا ســأكونه بفضــل الله ومــن ثــم دعمــك لــي وهــذا لــن أنســاه لــكِ أبــداً فأنــت الصــديقة باختفــاء صـديقاتي والأخـت التـي لـم تلـدها أمـي أنـتِ يـا شـهد مَـن أعــدتِ لــي الحيــاة بعــد مــوت أخَــوَيّ وصــديقتي الــذي تسـبّب لــي فــي الكثيـر مــن المشــاكل ومــن اليــوم ســأكون صــديقتك لأرد لــكِ جــزءاً مــن جميلــك وأنــا أرغــب بمصاحبتك

نامــتْ شــهد بجــانبي كمــا تنــام طفلــةٌ صــغيرة تتضــوّر جوعــاً وأمامهــا طبــقٌ مــن المــأكولات الطازجــة أمــا أنــا فجلســتُ أتأمــل تفاصــيل وجههــا المليحــة وملامحهــا العذبة في نومها.

مرت الأيام وبقيتُ مع حسن يعلم كلٌ منا الآخر حيث تعلمتُ منه الكثير بمجال الإنترنت الواسع وبرامج الحاسوب للتواصل والكتابة والعروض التقديمية كما أنشأ لي حسن موقعي الخاص لأكتب فيه أولى رواياتي التي تم تنزيلها على مؤشر البحث جوجل، في الحقيقة تطور أسلوبي كثيراً في الكتابة وهذا بفضله، كما علمته العديد من الطرق المختلفة في الكتابة وساعدته بكتابة بعض المقالات البدائية التي تفيده في مجال الإعلام

كما ساعدته ليقرأ بعض الكتب التي كنت قد قرأتها من قبل، بقينا على تلك الحال نتعلم ونستفيد ونستمتع حتى اقترب امتحاني في العام الأخير بمرحلتي الثانوية

زينب

استمر الحال في سرمين بين أختي فيحاء وزوجها وابنتها اللطيفة قضينا أيامنا هنا بسلام صوت القذائف موجود لكنه بعيدٌ جداً وجودنا هنا لا يشبه ما كنا عليه في حلب تحسّنتْ رزان بشكل كامل ومفاجئ فمَن رآها بالحالة التي قدمنا فيها إلى سرمين لا يعرفها الآن حتى ملامحها تغيرت وقد تعرفت على شاب مهذب ابن مدير الصحيفة التي تعمل بها حيث صار يعلّمها ويساعدها في دراستها والآن أنهت امتحانها للمرحلة الثانوية

وننتظـر نتيجتهـا علـى أحـرّ مـن الجمـر فـالحلم يقتـرب منهـا وتـركض هـي نحـو تحقيقـه كـم أتمنـى أن تلتقـي بـه ذات يوم.

رزان

ذهبـتُ كعـادتي كـل يـوم لأسـلّم بنفسـي المقـالات التـي أنـهيتها للأستاذ محسن

نظـرتُ حسـن فلـم أجـده وقلـتُ لا بـد أنـه فـي مكتـب أبيـه لأذهب لمكتب الأستاذ محسن

ـالسلام عليكم كيف حالك أستاذ؟

ـوعليكم السلام مرحباً بابنتي رزان

ـأهلاً بك أستاذي لمَ لم يحضر الأستاذ حسن.

ليرد بقلق

ـلا أعرف يا رزان أخبرني بأنه سيأتي اليوم مبكراً

رددتُ عليـه وقـد جـاءني شـعور القلـق نفسـه عنـد مـوت أخي وشغف

ـهل اتصلتَ به

ـحاولتُ مراراً وتكراراً لكنّ هاتفه مغلق

جاءه بعد قليل اتصال ليقول

-نعم أنا مَن؟ ماذا؟!.... أين هو ؟؟.... هل هو بخير

وأغلق هاتفه لأقول له بذعر

-ما الأمر أهناك حدث خطير؟؟

فأجابني وهو يلملم أغراضه

-حسن يا رزان

وبدأ يبكي حيث يداه لم تعد تقوى على حمل حقيبته فساعدته وقلت

-ما به حسن قل يا أستاذ ...

لا بأس سآتي معك

-ركبتُ سيارته وذهبنا حيث أخبرني إلى مشفى الحياة فحسن أُسعف قبيل قليل إلى هناك

دخلنا المشفى فأخبرنا أحد أصدقائه بإصابته بالجروح حيث كان يغطي مكان الحدث ويصور الانفجارات المتوالية في إحدى القرى.

دخلنا الغرفة الطبية الخاصة بالمصابين الجدد في المشفى لنجد حسن وفي يده اليمنى دمٌ قانئ اللون أخافني للوهلة الأولى حيث ظننته خارجاً منه كما أن وجهه امتلأ بالجروح والإصابات تمكّنتْ من جسده فأقلقني وهو ينظر للفراغ.

ليركض إليهه والده ويضمه برفق

-لماذا يا حسن تقلقنا عليك.. حمداً لله على سلامتك والشكر له أنك ما تزال بخير

فقال حسن دون وعي وكأنه لم يسمع شيء مما قاله أبيه ولا يزال معلقاً نظره في الفراغ

- لقد مات يا أبي

سأله والده بإستغراب

- مَن مات؟ قل

دخل زوج خالتي وألقى التحية علينا

-أهلاً أستاذ طريف

هكذا رد عليه الأستاذ محسن أما حسن فما زال ساهماً في اللا شيء

وقال بدموعٍ كالحة

-مـات صـديقي الوحيـد.... مـات خالـد يـا أبـي .... مـات بـين يـدي ...مـا اسـتطعتُ أن أفعـل لـه شـيئاً ...كـان يحلـم بـأن يصـبح صـحفياً.. ...تركنـي وحيـداً .... وحيـد يـا أبـي وحيد

نظـرتُ لـه وبكيـتُ حالتـه بكيـتُ صـديقه صـاحب الحلـم الـذي مـات قبـل وصـوله إليـه بكيـتُ خالـد أخـي الـذي مـات قبـل أن يـرى شـيئاً مـن حلـو الحيـاة فقـد رأى الحـرب ولـم يرَ من السلام شيء

تحسـرتُ علـى محمـد وشـغفي تألمـتُ لحـال حسـن فـأول مرة أراه مقهوراً يتألم

حسن

فارقـتُ خليلـي ورفيـق عمـري خالـد ذاك الشـاب الطمـوح صـاحب الهمـة العاليـة التـي انتقلـتْ إلـيّ بالعـدوى تركنـي حبيـب قلبـي ليخلـد هنـاك فـي ذاك المكـان البعيـد، أسـعفوني للمشـفى فتمنيـتُ أن أرى رزان التـي كـان مجرد التفكير فيها يداوي آلامي

وحـين قـدمتْ مـع أبـي بشـكلٍ غيـر متوقـع اسـتغربتُ ردة فعلهـا بعـد أن أخبـرتهم بوفـاة صـديقي حيـث توقعـتُ منهـا أن تواسـيني وتـدعمني كمـا فعلـتْ مـن قبـل وأنـا فـي حالـةٍ

أفضل من هذه بكثير لكنها لم تفعل بل تركتني هي الأخرى وركضتْ خارجاً

سأل أبي الأستاذ طريف

- ما بها رزان أعندها "حساسية" فوبيا من المشافي!!

-لا لا ولكنها مرت بالكثير

فقلتُ له

-بالكثير!!!

-لا بل الأكثر فقد توفي أخويها وصديقتها وغادرت بيتها ومدينتها كما أنها فارقت صديقاتها الأخريات ولا تعلم عنهنّ أي شيء بسبب الهجوم الغاشم على حيهم

نظرتُ له بصمت وقلتُ بسري: لقد مرت بالكثير حقاً إنها قوية فلو وصل لي يا رزان أن أضحي بحياتي لأجلك فسأفعل

رزان

خرجتُ لأجلس بحديقة المشفى حيث أردتُ أن أبتعد قدر الإمكان إذ آلمني منظره وكم أكره أن أراه منكسراً يكفي هذا فقد تعبت لماذا عليّ دائماً أن أفارق أحبتي أو أراهم يتألمون ولا أقدر على التخفيف عنهم

رغم سماعي لأصوات الأنين والوجع والصراخ وجدتُني فجأة منعزلةً عنهم جميعاً لأتذكرهنّ وأتذكر جلوسنا تحت النجوم وضحكنا وصداقتنا أتذكر كل شيءٍ جميل مر معي بينهم، فانهمرتْ دموعي بغزارة لتمسحها أصابعٌ متوهّجة وباردة في الوقت نفسه

التفتُ بسرعة والمفاجأة تفرش تفاصيلها على ملامح وجهي

لأجده حسن بعينيه التي تنزف دمعاً وقهراً

-هوّني عليكِ يا رزان

لم أقوَ على التلفّظ بأي كلمة وأجبته حين ارتميتُ بحضنه ورجفتْ يداي التي أمسكت بقميصه المهترئ بسبب الإصابة

-أحبكَ يا حسن أحبك لا تدعني أرجوك فقلبي رغم اتساعه إلا أنه لم يعد يحتمل

-أنا معكِ حبيبتي

ساعدتُه في تعقيم جروحه كما عرفتُ أن الدم الذي يغلي على يده اليمنى كان من رأس صاحبه خالد فتأثرتُ باكيةً وأنا أمسحه

كما ساعده والده بتغيير ملابسه

ياسر

تابعتُ التدريس لطلاب المرحلة الإعدادية وأعدتُ معهم تجربتي فتذكرتُ حين كنتُ في سنهم أحلامي وطموحاتي كما تذكرتُ ابني محمد عندما كان في هذه المرحلة العمرية كان لديه هاجس بأن يحقق المزيد وكنتُ أحلم معه والسعادة تحاوطني من كل جانب كم أنها مرحلة ممتعة وحين وصلتُ بذاكرتي لرزان وهي في الإعدادية خفق قلبي أي وقتٍ هذا مرت به خطرٌ وموت وفقدان

وفي اليوم الأخير من السنة الدراسية احتفلتُ وطلابي والتقطنا بعض الصور للذكرى كما كنتُ أتحرّى أخبار صدور نتائج الثانوية فكنتُ على يقين بأن رزان ستبلغ غايتها حيث اجتهدت وسعت نحو ذلك

رزان

وهكذا مرت الأيام كلمح البصر أنجزتُ فيها الكثير من الأعمال كما تم تنزيل كُتبٍ كثيرة لي، من رواياتٍ

وقصصٍ وأشعار وقد ساندني حسن فكان معي خطوة بخطوة،

وفي اليوم الموعود الذي ستصدر فيه النتائج

كان الجميع في ارتباكٍ وحماس وقد أحاط التوتر بكل شيء من حولي جلس الكل ينتظر أن يأتي حسن بنتيجتي تمنيتُ لو أنني ذهبتُ معه ترقبتُ وصوله بالخبر اليقين لكنه تأخر راقبتُ عقارب الساعة لأجدها أبطأ مما أظن وتمضي الدقيقة وكأنها أيام

وأخيراً أطلّ حسن بوجهه العابس المتكدر ولم ينبس ببنت شفة قبل أن أركض إليه وأسأله بلهفة يشوبها القلق أعرف أنني ناجحة ولكنني أخشى ألا تؤهلني درجاتي لدخول الطب فيضيع حلمي

- كيف يا حسن أخبرنا ما بك هيا قل

- أنتِ يا رزان بذلتِ جهدكِ ولكن

-لا معدل قليل لا يدخلني الطب.. ماذا

-لا بل معدل عالي يا رزان

وضحك من أعماقه كما لم أره يضحك من قبل فحضنني وهو يقول مبارك يا رزان مبارك يا طبيبتنا

عانقني أمام الجميع وكانت المرة الأولى التي نتعانق فيها أمامهم

بارك لي كل مَن حضر الفرحة تلك

رأيتُ بريقاً في عيون أمي وأبي قد فارقهم منذ زمنٍ بعيد ركضتُ إليهم أقبل أيديهم وكدتُ أنزل إلى أقدامهم لولا أنّ أبي نهض بي فحملني أمام الحضور وهو يصرخ

-حلمي حلمي ها أنا ذا واقفٌ وحلمي قيد التحقيق.

ودخلتُ إلى كلية الطب في محافظة إدلب برفقة حسن الذي أبى أن يدعني وحدي في عالمٍ جديد لا أعرف عنه شيء

وكان الأستاذ محسن يوجّهني دائماً ويقدم لي النصائح كما يفعل أبي وأكملتُ مسيرتي بالكتابة إذ بدأتُ بكتابة روايةٍ جديدة بعنوان "على الضِفة الأخرى" وحين أنهيتها أقمنا احتفالاً بسيطاً فكانت ليلة جميلة مليئة بالأفراح إذ حان وقت التحليق بحلمي في عنان السماء.

بعد ذهابي للجامعة انبهرت كثيراً بكل شيء وأحببتُ التخصص في قسم الأطفال لطالما أحببتهم منذ الصغر حاولت أن أوازي بين الجامعة و العمل بالصحيفة فكان يومي مليئاً بالكثير من الأشياء أهمها القمة التي أسعى إليها والتي منذ أن بدأتُ بالجهد والعمل وضعتها نصب عيني

لقاء صديقاتي من جديد وتحقيق حلمنا، وأن أعين عائلتي على نسيان ما مر معنا من صعوبات وعثرات،

كان والدي يتذكر بين الحين والآخر محمد وخالد فيبكيهما وكأنهما يموتان من جديد كما لو أنه يخبر بفراقهما للتو والسنوات لم تنقضِ على رحيلهما وكل هذا لم نتمكّن من معرفته لولا أنني قصدتُ الباب لأستعير كتاباً من غرفة عمي طريف حيث دلني على مكانه فدنوتُ من الباب لأسمع نحيباً وكان من أبي

لم أشأ أن أحرجه في تلك اللحظة ولكنني بعد ساعة ذهبتُ إليه واحتضنته فلم أعد أقدر على الصبر وأراه يتوجع وأسمع أنينه في أذني

كما أن صورة محمد وقميصه ولعبة خالد أشياء لا تفارق حقيبة أمي التي حاولت أن تتظاهر بالنسيان

سأكون الطبيبة التي يحلمان بها وسأعالج ذاكرتهما قبل معالجة أي شيءٍ آخر

تعلّقتُ بحسن وصار قريباً مني أكثر من أي شخصٍ آخر ألفتُ وجوده معي فصار من أحبّ الأشياء إلى قلبي

لا لا لم يكن شيئاً كثيراً ما يخونني تعبيري حين يكون الحديث عنه وقد ازداد المديح في أسلوبي الكتابيّ وأُعجب الكثير بكلامي وجزالة ألفاظي.

في نجاحي بالسنة الثالثة في كلية الطب قدم لي حسن بهدية مغلفة فقال لي

-ألا تفتحينها وتبدين لي رأيك

-بلـــى ســـأفعل فعنـــدي مـــن الفضـــول مـــا يرهقنـــي حتـــى أعرف ماهيتها

وضحكنا سوياً

فأزلـــتُ الشـــريط المربوطـــة بـــه وفتحتهـــا لأجـــد كتابـــاً بعنوان "على الضفة الأخرى "

وتحته اسمي الثلاثي مدوناً بخطٍ عريضٍ مسطّر

- مـــاذا إنهـــا روايتـــي قـــد طبعتهـــا يـــا حســـن مـــن أجلـــي شكراً لك يا عزيزي هذه أجمل مفاجأة على الحقيقة

-لـــيس هـــذا فقـــط بـــل اســـتطعتُ أن أتواصـــل مـــع بعـــض المكتبـــات بمعظـــم أنحـــاء الـــوطن العربـــي حتـــى تتـــوفر لـــدى نطاق واسع من القرّاء

فنظـــرت لـــه نظـــرة شـــكر وامتنـــان لطالمـــا كـــان معـــي بسعادتي وحزني نال من قلبي ما لم ينله أحدٌ قط.

مضـــى ذلـــك اليـــوم بســـعادةٍ عائليـــة جميلـــة وقـــدموا لـــي هـــدايا رائعـــة حقـــاً، أتمنـــى أن أهـــديهم بـــدوري تخرجـــي ونجاحي على أرض الواقع.

محسن

انقضت سنوات والصحيفة تتقدم وتتطور وذلك بفضل رزان والكتّاب الآخرين الذين يبذلون جهوداً مضاعفة كما أنني سُعدتُ بتخرج حسن إذ صار إعلامياً ماهراً وساعدني بنهوض صحيفتي

كما تمنيتُ أن يجمع الله بينه وبين رزان لطالما أحببتها كابنتي ورأيتُ فيها سمات الخلق والثقافة والرقي فأحببتهما معاً ليكمل كلٌّ منهما الآخر وأرى أن حسن يحتاج زوجةً صالحةً حنونة تنسيه أحزانه وآلامه وتحبه وأراها رزان التي ستقدر على أن تكون له كما يلزم فهي على خلقٍ رفيع وبالٍ طويل وقلبٍ كبير

زينب

قضيتُ وقتاً ممتعاً مع فيحاء حيث أشعرتني أنني في بيتي كما أسعدني وجود شهد الفتاة البريئة اللطيفة التي تحب رزان كأختها وأبيها طريف الذي كان رفيقاً لزوجي ونعم الصديق فقد أحبه ياسر وفتح له أبواب قلبه حيث لم يصادق أحداً سواه في هذه المدينة،

ألحقتُ الأولاد في المدرسة وبذلتُ جهدي في تدريسهم

أمـا رزان فأدخلـت السـعادة مـن جديـد إلـى قلبـي بـدخولها فـرع الطـب البشـري الـذي أحبتـه منـذ صـغرها وطمحـتْ له

شهد

فـي الحصـة الثانيـة مـن دوامـي فـي يـوم الثلاثـاء وصـلنا خبـر استشـهاد دلال رفيقتـي الجديـدة التـي أهـديتها قلبـي وأهـدتني كـل شـيء وعنـدما ذهبـت مـع أبيهـا لتهريـب أخوتهـا مـن واحـدٍ مـن أحيـاء حمـص المحاصـرة حيـث منعـوا والـدها مـن العبـور وحـده وقبلـوا دخـول العائلـة فـأخبرهم أنـه يمتلـك ابنتـاً واحـدة وأمهـا مطلقـة فسـمحوا لهمـا بالـدخول لتأتيهـا رصاصـة قنّـاص مجـرم فـي أول الأمـر لـم أسـتوعب الفكـرة ولكننـي تقبّلـتُ حـدثها بعـد دقـائق وذهبـتُ مـن المدرسـة إلـى المنـزل وأنـا مقهـورةٌ أشـعر بصـخورٍ جاثمـة فـوق صـدري وجـدتُ صـعوبةً بالغة في عملية التنفس

حتى الدموع لم تجد لها سبيلاً للخروج من مقلتي

كـان كـل شـيءٍ معـتم تحسسـتُ بصـعوبةٍ يـد البـاب لغرفتـي ودخلتُهـا لأرتمـي علـى سـريري تمنيـتُ لـو أننـي أنـزع كـل الأفكار من رأسي وأنام لكنني لم أقدر على فعلها

إلا أن دخلـت رزان وأرادت أن تخبرنـي شـيئاً لكنهـا لحظتْ حزني فقالت بصدمة

-شهد أكنتِ تبكين ما الذي حصل .... ما بك.... قولي

-أتـذكرين حـين أخبرتـكِ بـأن صـديقتي الوحيـدة دلال التـي ذهبـت مـع أبيهـا منـذ فتـرةٍ ليسـت بالطويلـة إلـى حمـص لتأتي بأخوتها

-نعم أذكر ما بها

-استشهدت

وانفجـرتُ باكيـةً بعـد أن كنـتُ أعـاني مـن جفـاف دمعـي فعانقتني وبكتْ معي

- لـم يبـقَ لـي أحـد يـا رزان بـالأمس كنـا سـوية والآن تركتني لوحدتي

-رحمهـا الله لا تقـولي هـذا فأنـا هنـا صـديقتك وأختـك ألا يرضيكِ ذلك

- بلى والله ولكن الفراق صعبٌ جداً

-سـنة الكـون هـذه يـا شـهد مواليـدٌ جديـدة وأمـوات وهنـاك أفـراحٌ وأحـزان فاعتـدلي بحزنـكِ كمـا تعتـدلين بـالفرح والله سيبتلينا بالفقد والفراق لينظر صبرنا

بكيتُ ولم أستطع الرد

فأكملت

-ستصـبرين ويـربط الله علـى قلبـك يـا حبيبتـي فقـط أكثـري من ذكر الله والدعاء لها

-إن شاء الله

حسن

جلستُ في غرفتي أتذكر مواقفي مع رزان

كم أنتِ رائعة يا رزان وجدتُها وقعت في نفسي فأحببتها بشدة لما رأيته فيها من الأمل والحياة رغم كل المعوقات يظل أملها كبيراً وظنها بربها جميلا، وهذا ما أحلم فيه بفتاة أحلامي من اليوم لن أتركِ يا رزان وستكونين معي للأبد

رغم أنني إعلامياً ماهراً حيث يمدح الجميع من طريقة تقديمي للأخبار والتمهيد لها والإحفاء بها إلا أنني شعرتُ بارتباكٍ في هذا الأمر بالتحديد

كيف أصارحها بالحب الذي زرعته داخلي!

أعرف أنها مرت بالكثير كما أعرف أنها لا تفكر بالارتباط بهذه الفترة ولا بالزواج فكيف أتقدم لها

تدربتُ كثيراً وتمرنتُ على الحديث معها ولكنني أفشل في كل مرة أووووه ما أصعبها،

قررتُ أن أدع الأمر للصدفة حيث يلهمني قلبي أن أخبرها فسوف أقولها بطريقةٍ تلقائية وعفوية

وخلدتُ إلى النوم بعد تعبٍ طويل

رزان

ذهَبتُ في أول أيام الأسبوع للجامعة فسمعتُ نداءً باسمي من إحدى طالبات دفعتي وكانت فتاةٌ هادئة تجلس بمفردها على أحد كراسي الحديقة التفتُ إليها فأشارت لي أن أجلس بجانبها وفعلت لتقول لي بتوتر

-رزان أتقبلين بي صديقةً في جميع الحالات فأنا أحب إصرارك وذكاءك أحب كل شيءٍ فيكِ وأتمنى أن أكون مثلكِ وأتقرب منكِ

-بالطبع يا ملاك فنحن أصدقاء بإذن الله

-في الحقيقة أحببت أن أتعرف عليكِ فأنتِ الوحيدة التي شعرت معها براحة كبيرة

- في هذا شرفٌ لي يا ملاك وأنت فتاةٌ رائعة حقاً

فقالت بفرح وهي تمد يدها لي -أصدقاء!!!

لأمد أنا يدي بالمثل وأقول

-أصدقاء ولآخر العمر بإذن الله

سُعدتُ بصداقة ملاك التي تشبه شغف إلى حدٍ كبير فأظنها هديةً لي من الله وما أحلاها من هدية،

زينب

مضت خمس سنوات مع رزان حيث وزّعت وقتها بين العمل والدراسة وأصبحت من أصحاب الشهرة الكتابية حيث رفعها قلمها وفكرها، صار لها العديد من الكُتب باسم الكاتبة رزان ياسر خلف وهذا ما زاد من فخري وأملي وذلك بأن الكل يقرأ ما تكتبه ويأتي أحدهم ليقول رزان كاتبتي المفضلة الحمد لله ألفاً على هذه النعمة كما أن علاقتها بحسن توطدت فساعدها بكل مراحلها العملية وكان سنداً لها

أما الآن فلم يبقَ لها إلا عامٌ واحد لتبلغ غايتها وتحقق حلمها بالتخرج من الكلية الجامعية

رزان

كانت ملاك رائعة جداً وخفيفة الظل هوّنت عليّ الكثير من المصاعب التي مررتُ بها

كما أنها وحيدة لا أشقاء لها ولا أصدقاء أما والديها فكانوا أشخاصاً نبلاء

حيث صارت تأتي لتبيت معي وشهد كما أنها أحبتْ شهد وصادقتها كما أنها اعتادت أن تقرأ كل شيء أكتبه وتعطيني رأيها حيث أصبحنا كالأخوة.

وجاء يوم بينما كنت في مكتبي بالصحيفة طرق حسن الباب ودخل المكتب

-السلام عليكم كيف حالكِ اليوم

-وعليكم السلام أهلاً وسهلاً بكَ يا حسن

-أريدك بموضوع هام ألديك وقت

-تفضل كلي آذان صاغية

- أنا أحبك حقاً يا رزان

وأجريتُ استفتاءً لكل جوارحي فاختارتكِ بكل إصرارٍ وعزيمة

أريد أن أرتبط بكِ يا رزان وأنتِ لا تعرفين فعلاً كم عانيت بترتيب كلماتي تلك التي سأقولها لكِ

أحبك من أعماقي

-لم أقل لكَ فاجأتني فلستُ بتلك المثالية توقعتُ منك ذلك وربما لأنني أحمل اتجاهك المشاعر ذاتها ولكنني

قاطعني حسن بقوله

- أعـرف يـا رزان صـديقاتك وحلمـك سأسـاعدك فـي كـل شـيء عليـكِ أن تـوافقي فقـط وتثقـي بـي هـذه المـرة أرجـوكِ تكرّمـي علـيّ بـالقبول وسـأجعلك أسـعد فتـاة على هذه الأرض

وإن لـم تفعلـي فأعـدكِ ألا أتغيـر معـك وسـأبقى رفيقـكِ طالما تريدين ذلك

فـي الحقيقـة أسـعدني بمـا قالـه فقـد أُعجبـت بـه وبـدأ حبـه يتغلل داخلي فصار جزءاً هاماً من حياتي

فقلتُ له بحماسٍ وحب

-أوافـق علـى الأسـتاذ حسـن بـن محسـن زوجـاً لـي كمـا أتمنى أن أكون قرة عينٍ له كما كان لي

فـرح حسـن كثيـراً وشـعرتُ بـوميض سـعادةٍ يضـيء بعينيـه التـي أوصـلتْ لـي رسـالةً تحمـل الحـب والـدفء كما كانت تحكي الكثير وأنا أفهم مباشرةً

رن هـاتفي الجـوال الـذي أهـداني إيـاه حسـن ورددتُ ليأتيني صوت صديقتي ملاك

- السلام عليكم كيف حالك يا روز

-الحمدلله كيف حالكِ أنتِ

-بخير الحمد لله، كيف كان عملك اليوم

-بلا مقدمات لقد طلب حسن يدي للزواج

-مـاذا؟! الحمـدلله هـذا مـن أجمـل الأخبـار التـي سـمعتها اليوم

- أهناك أخبار أخرى يا ملاكي

-تعـرفين يـزن ابـن عمتـي تقـدم لخطبتـي اليـوم والحقيقـة أننـي فرحـت بطلبـه جـداً، فأنـتِ تعـرفين أننـي أحببتـه منـذ الطفولة

-مبـاركٌ لـكِ مـلاكِ، يـا لـه مـن يـومٍ جميـل، بقـي منـا شـهد فلنسعَ في البحث لها عن عريس

-هههه مهلاً مهلاً يا رزان أنسيتي أنها تصغرنا سناً

-نعم لاتزال صغيرة على الارتباط كما أننا لم نكبر بعد

-هههههه لا يا عزيزتي بل هرمنا

-أنـتِ فقـط مَـن هرمـت أمـا أنـا فمـا زلـت شـابةً يافعـة لـدي من الأحلام مالم أحققه بعد

-ستحققينها يا صغيرتي

-هههههه إن شاء الله بالمناسبة ملاك أنا أحبكِ جداً وأكرر تهنئتي لكِ

-وأنا أيضاً أحبك

هيا انهضي للدراسة فلم يبقَ عندنا الكثير من الوقت نتعب ونقدم وتسكننا الراحة

-إن شاء الله وسنتحدث كثيراً

-نعم نتحدث لأننا الآن نعاني من قلة الكلام

-هههههه

انتهت محادثتنا وانتقلتُ للدراسة فهذا عامنا الجامعي الأخير ونتخرج لنحقق حلمنا

وبعد أيامٍ من انتهاء آخر امتحانٍ لي جلستُ أشاهد في إحدى القنوات نشرة الأخبار لأجد اسم معلمٍ قد توفي وهو رجلٌ مصري

غيرتُ القناة أكثر من مرة فكانت الأخبار كلها تحكي عنه وعن وفاته للحقيقة زاد من فضولي أن أعرف ماذا فعل هذا الرجل ليتكلم عنه الكثير!!

وجدتُ على بعض المواقع والصفحات فقد كان مدرس لمادة اللغة الإنكليزية، حيث كان يُدرّس بإتقان دون كلل أو ملل فكان يعطي المعلومات ولا يبخل على طلابه بها، بكاه الكثير من طلابه ورثاه العديد منهم حيث كان أباً روحياً لهم قبل أن يكون معلمهم وقد جذبتني إحدى الجمل التي كثيراً ما رددها

{طالما هناك ساعة، طالما هناك دقيقة، طالما هناك ثانية، فالأمل موجود}

هذه الجملة أعجبتني وبشدة حيث ألّفها بنفسه ولم يقتبسها، فتحدث الكثير من الطلاب عنه وعن الثمار التي زرعها فيهم

حين كتبتُ اسمه "حاتم عزب" وقد ظهر لي كل شيءٍ عنه المديح والمقولات الأصدقاء والأهل الجميع يذكره ويدعي له بالرحمة والمغفرة

، وهل يوجد أفضل من هذا أنه بعدما ذهبت روحه لبارئها ظل الكثير يتذكره، فقلتُ في نفسي لمَ لا أتكلم وأكتب عن الأشخاص الذين أثروا بالكثير وغيروا مسار تاريخنا لا يمنعني شيء وقد شجعني حسن على الكتابة عنه وعن كل مَن هو مثله وبالفعل كتبتُ عن

هـذا المعلـم وقـد أُعجـب بهـا الكثيـر حتـى جملتـه اتخـذها الكثير من الناس كمبدأ لهم بالحياة.

وبعـد فتـرةٍ مـن خطوبتنـا أنـا وحسـن وقـد زاد حبـه فـي قلبي

جلستُ على أريكتي وأمسكتُ بورقةٍ وقلم لأكتب

لقـد أشـتقت لأملـي وبراءتـي قـد فـارقتهم داخـل هـذا الغيهبـان المسـيطر علـى وطنـي، سـيطر هـذا اليبـاب علـى منطقتنـا، وانتشـر الـدمار وتحطمـت الـذكريات لأشـلاء بهـذا المكـان المُحـاط بالأعـداء، سـأبحث عنكمـا وسـأحرص علـى أن أجـدكما مهمـا طـال بـي الزمـان ولآخـر نفـس لـن أيـأس بإعـادة المحاولـة. وأنـتِ يـا شـغفي يجـب أن تعلمـي أننـي لـن أفقـد الشـغف الـذي عهـدتكِ عليـه سـأظل أحـاول وأجاهـد ومعـي حسـن وأهلـي وملاكي لأجد صديقاتنا ونحقق حلمنا معاً

كتبـت هـذه الكلمـات لأننـي كلمـا أشـعر بنفسـي وأحـن للماضـي لا أجـد مَـن يحتضـن مشـاعري غيـر أوراقـي

التــي أبعثرهــا دائمــاً مــع ذكريــاتي حيــث أحــتفظ بهــا فــي ذاكرتي وقلبي

ظهرتْ النتيجة المصيرية عن طريق أبي هذه المرة

-رزاااان مبـــارك يـــا حبيبتـــي مبـــارك يـــا طبيبتـــي يـــا حشيشة قلبي

-بارك الله بعمر أبي وصاحب الفضل عليّ من بعد ربي

التفتُ إلى أمي وقد وقف حسن بجوارها فعانقتهما معاً

وأعدتُ الكرة نفسها مع ملاك وشهد

أمــا خــالتي فيحــاء مــع أخــوتي والأســتاذ محســن "عمــي" لا أعــرف لــمَ أجــد صــعوبةً فــي أن أنــاديــه عمــي محســن كما وقف عمي طريف مقابلاً له

فبارك لي جميعهم وأجبتهم بفرح

-بارك الله بعمركم وأدامكم لي سنداً وعونا

شهد

تخرجــت رزان مــن كليــة الطــب بمعــدلٍ ممتــاز كمــا أن مــلاك قــد تخرجــت أيضــاً بمعــدلٍ أقــل وتزوجــتْ مــن يــزن ابن عمتها فدعتنا لحضور حفل زفافها

فحضـــرنا الحفـــل وقـــد كـــان الجميـــع بســـعادةٍ عارمـــة وهمس حسن لرزان

-متى يصلنا الدور

-لا يـــا حســـن لـــيس الآن حتـــى نحقـــق حلمنـــا أولاً ثـــم نتزوج بعدها

فقال العم محسن

-لـــمَ يـــا حبيبتـــي لا يمـــانع إن تزوجتمـــا الآن أن تفكـــرا بالمستقبل وتسعَوا لتحقيق الحلم

ما رأيك يا ياسر

-معـــك حـــق لا يمـــانع فالحيـــاة مراحـــل ولا بـــأس فـــي أن نقدم واحدة على الأخرى إن لم تفسدها

فوافقناهما جميعاً

لتقول رزان

-إذاً يـــا حســـن أنـــا رزان ياســـر خلـــف أقبـــل الـــزواج منـــك وكلي تواضع

فقلتُ لها أمازحها

-تقصدين " وكلك غرور "

ليضحك الجميع وتم الاتفاق على أن يكون الزواج بعد أشهر..

و كان الدواء من حيث كان الداء

براءة

تستمر الأيام والذكريات ومازال حُلمي بأن أكون جراحة جميلة ومتميزة يراودني حيث أن الحرب وقفت أمام حلمي وقد عرفتُ جيداً بأنه من المُحال، وقد كنت أسكن بحي الفردوس إلى جانب صديقتي رزان

كما أن شغف كانت قريبةً منا بينما صديقتنا أمل فقد كانت تسكن في شارعٍ بعيدٍ عن أزقتنا مع العلم أنهنّ يكبرونني سناً إلا أنهن اختاروني صديقاً لهن للأبد والصديقة الأقرب هي رزان حيث أن منزلها مقابل منزلي لديّ أسرةٌ لطيفةٌ متماسكة مكونة من أبٍ مدرِّس وأم مربية رائعة من الدرجة الأولى شقيقي الأكبر أحمد وهو الأحب إلى قلبي حيث كان يدافع عني ويحميني ويرشدني حين أضيع بمتاهات المراهقة ولدي أختَيْن صَغِيرَتيْنِ فأقضي أغلب وقتي بين أبي وأمي حيث حلما بأن أصبح طبيبةً رائعة فأنا أجتهد كثيراً ولكنه كان ما نغص عليّ حياتي فقد كنتُ معروفةًبشخصيتي الضعيفة وطيبتي الزائدة إلا أن صادقتُ الفتيات الثلاث فهنّ لي الصديقات والأخوات والحياة بمختصرها وفي يوم الخميس حيث كان اليوم

مميـز والليلـة جميلـة لكنهـا بـاردة قلـيلاً شـعرتُ بـوخزةٍ مفاجئـة فـي صـدري فاسـتغربتُ منهـا ووضـعتُ يـدي علـى مكان الوخزة لتنتله أمي وتسألني

- ما بك! هل يؤلمك شيء؟

أجبـتُ بـالنفي حيـث رفعـت حـاجبي ودخلـت غرفتـي كـي أستريح ولا تقلق أمي

لـم يكـن أحمـد بـالمنزل ذهـب إلـى المشـفى فهـو ممـرض يعـالج الجرحـى أردتُ الـذهاب إلـى رزان ولكـن الـذهاب بهـذا الوقـت وجدتـه مُحرجـاً اسـتلقيت علـى سـريري وإذ.

. .

صوت قذيفة صرخت لا شعوري أخي أحمد

ثم خرجتُ من غرفتي وسألتُ أهلي

- ماذا هناك ما الذي يحدث؟

أجـاب والـدي: يبـدو أنهـا قذيفـة سـقطت علـى السـوق فجـاءت أمـي تـركض وتصـرخ بهلـع: أيـن ولـدي قلبـي يغلي أخاف أن يصيبه شيء

فـردّ والـدي مـا بـك متشـائمة إن أحمـد بالمستشـفى والقذيفـة بعيـدة عـن مَشـفَاهِم كمـا أنهـا ليسـت المـرة الأولى التي تسقط فيها قذيفة على السوق

صـمتت أمـي بـألم وعـادت إلـى غرفتهـا كـي تهـدّئ مـن روع أخوتي الصغار

عماد

حين سمعتُ أصوات الصواريخ القادمة من طرف السوق شعرتُ بالخوف على أولادي وطلابي ورفاقي وأكثر ما أقلقني خروج ابني أحمد من البيت وذهابه. للمشفى فأرى أن الخطر يلاحقه منذ وقت وقد تعرض للموت مراتٍ عديدة بحكم عمله كمُداوٍ في المشفى

براءة

حَل الليل ولم يأتِ أحمد قالت أمي

-لقد تأخر كثيراً ألا تخرج يا عماد فتطمئن بالحال خارجاً

أجابها والدي

ـيبدو أن عمله كثير وربما دوره بالمناوبة ليلاً في المشفى بالأمس كان صديقه مناوباً أنسيتِ!!

-إن شاء الله سيكون بخير فلنطمئن

قلتُها وقد شعرتُ بارتباكٍ داخلي لماذا تأخر أحمد أَحَقَّاً حصل له شيء لا ما بك لا تكوني متشائمة لكنني خائفةٌ عليه فالوضع خطير

حديثٌ داخلي سار فتناولا عقلي الباطني والظاهري أطرافه

مـرت فـي بـالي صـديقتي شـغف عنـد تـوالي القـذائف فخشـيتُ فراقهـا ولا أعـرف لخـوفي سـبب ففسـره داخلـي باشـتياقي لهـا فـلا داعـي للقلـق دخلـتُ غرفتـي ثانيـةً لكـيلا يشـعر أحـد بارتبـاكي ف أمـي مريضـةٌ بالسـكر ولا أريـد إخافتها بأوهامي التي أنهكتني

أطفـأتُ النـور وطويـتُ ركبتـاي كمـا أرجعـت ظهـري إلـى مسـند السـرير أنتظـر. . . وقـد أخـذتُ غفـوة لا شـعورياً ففتحـت عينـاي. . . . يبـدو أن الصـباح حـل فزعـت موجهةً نظري إلى سريره لم يعد

أيـن هـو بـدأ الشـعور المخيـف داخلـي يتـدفق سـمعت صَـوتَ نحيـبٍ فـي غرفـة الجلـوس خرجـت راكضـة فـإذا بـه أبـي جـالسٌ علـى ركبتيـه واضـعٌ يديـه علـى رأسـه يجهش بالبكاء سألته: ما بك يا أبي قل ما الذي جرى؟

أشـار بسـبابته إلـى التلفـاز وفـي عينيـه دمـوع الصـدمة التي باغتته.

نظرت برعب لأجد اسم أخي بين الشهداء

مريم

بينمـا قضـيتُ كـل الليلـة الماضـية أترقّـب وصـول أحمـد سـمعتُ صـوت عمـاد يتنهـد ومـن ثـم بكـى فسـارعتُ إليـه لتقـع الصـدمة عمـاد وبـراءة يبكيـان والتلفـاز مُشـغّل دنـوتُ منـه لأخفـض مـن صـوته وأفهـم الأمـر لا بـد مـن وقـوع كارثـة عظمـى فوجـدتُ اسـمه علـى الشاشـة

بـالأحمر العـريض حصـيلة الشـهداء ليـوم الخمـيس أحمـد عمـــاد الياســـين -محمـــد ياســـر خلـــف- دلال ســـهيل إســـماعيل-أمـــين الـــدالاتي وعشـــرات مـــن الجرحـــى والشهداء مجهولي الهوية.

صـرختُ بكـل مـا منحنـي الله بقـوةٍ فـي الحنجـرة وتقطـع قلبي ليخرج أشلاءً مع صوتي وأنا أندب وألطم

- لا ولـدي لـم يمـت لا بـد مـن الخطـأ لا ولـدي أحمـد لـم يرحل

وبعدها شـعرتُ بنسـمةٍ بـاردة تمـر علـى جسـدي فتعيـد لـي قـوتي وإيمـاني فقلـتُ لله مـا أخـذ ولله مـا أعطـى ورحـتُ أحتضن براءة التي انهارت كلياً بوفاة أخيها أجبته

براءة

قلـــتُ لأمـــي بصـــوتٍ ملـــيء بالبكـــاء والألـــم لقـــد مـــات اسـتندتُ إلـى الحـائط فلـم تعـد قـدماي تحملنـي وفاجـأتني أمـي حيـث بـدأت تـردد أذكارهـا وتحمـد الله وتسـأله صـبراً وسـلونا واحتضـنتني فكـادت يـداها تصـفعني لأفيـق علـى الفاجعـة المؤلمـة مجـدداً أمـا إخـوتي الصـغار فراحـوا يبكون لبكائنا ولم يدركوا سبب نحيبنا.

وفـــي موجـــة الحرمـــان والألـــم جـــاءني صـــوتها يعلـــو بالبكـــاء والولولـــة وعرفتهـــا صـــديقتي رزان التـــي لا يُبكيهـا إلا خبـر الوفـاة فهـي أقـوى مـن دمعـات الفتيـات التـي تنـزل علـى أتفـه الأسـباب، توجهـتُ إلـى مـدخل مبنـى

بيتها لأسمع نحيباً من أمها وإخوتها فطرقتُ بابهم لتفتحه رزان بعينيها المليئة بالدموع الحارة وأطلقت سهامها في صدري حين أخبرتني بموت أخيها مع أخي بالمشفى

وأبكى منظرنا الباب الذي فُتح جانبنا حيث كان مشهدنا مأساوياً للغاية ولم نشعر ببشاعة الموقف حينها فالمكان مليءٌ بالألم والدموع وكان هناك أيضاً صوت بكاء حار خارج من أحد المنازل

عماد

خرجتُ بجنازة ابني كما ودعتُ روحي بفراقه لم أشعر يوماً قط أنني سأفقده عندما حملنا النعش مرت ببالي ذكرياتي معه وتذكرت طفولتي التي منحني إياها بطفولته فساعدتهم ورفعتُ التابوت وكأنني أحمل له حقيبة مدرسته التي تتعب ظهره الصغير وأنا أودعه تخيلتُ نفسي أوصيه بألا ينسى قطع الشوكولاتة في الحقيبة والوجبة التي أحضرتها أمه مخصصةً لصباح ابنها فأنهاه عن إهمالها وأخشى أن تبيت أكلاته ويُبيتَ جائعاً.

وكان أبو محمد جاري وصاحبي بالطرف الثاني يحمل ابنه في تابوتٍ مماثل ولكنني في تلك اللحظة لم ألاحظه وما كان بالإمكان أن أواسيه وقد فقدتُ الأمل الذي سأحدثه عنه

براءة

أما أمي فقد كانت صابرةً محتسبة إلا أنها في صدمةٍ لا تدري أهي موجودةٌ فعلاً أم لا..!!

دخلتُ غرفتي فأقفلت الباب ونظرتُ حولي حيث لم أشعر بضيقٍ كهذا من قبل وكأن روحي تشهق داخلي وتصرخ أريد التنفس اتجهتُ نحو خزانة الملابس بخطواتٍ ثقيلة لأجد قميص أحمد معلّق أخذته فاستنشقتُ ريحان أخي وعبيره وأنا أبكي

آاااااه يا الله إليكَ المُشتكى لقد رحل أخي واصبرااه ....واقلباااه. وشقيقاااه لم أكن أعرف كمية ألمي وجرحي الذي لن يلتئم.

جلستُ على السرير واضعةً يدي اليُمنى فوق قلبي وأنا أجهش ببكاء الدمع الذي خنقني قبل أن يخرج من مقلتَي أنظر إلى الساعة وكأنها هي الأخرى توقفتْ لا تمشي فالوقت لا يمضي مازالت متسمّرةً على الحادية عشر والنصف سمعتُ نداءً في الغرفة المجاورة إنه صوت أحمد!!

لقد عاد ركضتُ متلهّفة إلى الغرفة فتحت الباب بوحشية ليسود الصمت داخل الغرفة فعدتُ إلى غرفتي حاملةً قميصه بيدي هويتُ بجسدي على السرير وبدأتُ ببكائي من جديد

ما أصعب النوم بعد الفقدان ومَن فقدت!!

فقدتُ أقرب الناس لي

أخذتْ عيناي تغلق بعضها البعض من أثر التعب والألم أيقظني المؤذن بندائه لصلاة الفجر فتوضأت وبدأت بالصلاة.

أخذتُ القرآن ورحتُ أرتل آياته ريثما يصل أحمد فهو يأتي عادةً في مثل هذا الوقت سأنتظره لكي أفتح الباب له حتى لا نُزعج أبي بصوتنا فقد أنهكه الوقوف طوال النهار أمام الطلاب رافعاً يده إلى السبورة ويكتب فيشرح ويمسحها ليعيد الكرة نفسها ولا داعي لإيقاظه في وقتٍ متأخر

جلستُ على السرير وفتحتُ القرآن وإذ به القميص بجانبي مبللاً بدمعاتي الأخيرة

نظرت إليه ما الذي يفعله هذا هنا ساد الصمت غرفتي مرةً أخرى

إنه قميص أحمد ما بك أنسيتي أنه دُفن قبيل ساعات

هكذا كانت معاتبة عقلي الباطني فقلبي يأبى أن يصدق بأنه فارق الغالي

مريم

بعد أن أنزلوا أحمد في قبره وألقوا عليه تراباً بارداً اجتاحني الألم من كلّ جانب إلا أنني آثرتُ الصبر والإيمان وحاولتُ أن أدعم عماد الذي كان يكابد حزنه

ويكابر فلا يُظهر أمامنا إلا القوة وفي داخله ضعفٌ ينزف ويوجع أما براءة فقد كان الأسى بياناً وعنواناً لحالتها حيث فارقتْ رفيق دربها وقدوتها

كما أن أولادي هم ما بقي لي من الحياة فأخشى عليهم من الهم والتعب

براءة

مرت أيامٌ عصيبة وجاء العيد فذهبتُ مع أمي لنزور أحمد في قبره

لم يكن عيداً على أي حال بل كان يوماً جديداً كغيره إلا أنه تجاوز الروتين بعد شهر رمضان المبارك الذي كان إفطاره ذكرى ودمعات وسحوره ندبات.

أخذتُ الماء ومعها شتلة وردٍ رأيتها ذابلة ربما صرتُ أرى كل شيءٍ هكذا

ما إن وصلنا المقبرة حتى وجدنا العشرات لا بل المئات من الأمهات والزوجات والأيتام والثكالى إنه عيد المسلمين جميعاً إلا أن الدنيا ضاقت بهم على رحبها فقدموا أولادهم الشهداء عطاءً وتضحيةً منهم ولكلٍ منهم فقيده اتجهنا إلى قبر أخي وحين وصلتُ تناولتُ قبضةً من التراب الذي يغطيه وبدأت بالبكاء أنا وأمي ورددنا الدعاء له على ألسنتنا أما أبي فقد مثّل دور الصامد الذي لا تكسره الأزمات ولكن هذا لم

يستمر طويلاً فقد ابتعد عنا لكيلا نراه وبكى أول أولاده وذكرياته وأحلامه

بكى كما لم يبكِ من قبل

ورحتُ أثقب في التراب ثقوباً عدة حتى صارت حفراً صغيرة وزرعت شتلةٍ الورد فيها فسقيتها وقد زاد الماء في جعبتي.

تلفتُّ حولي ورأيت الكل يبكي كانت لوحةً لدماءٍ جفّت في العروق ودموعٍ أسرتها المقل.

وحدّقتُ بامرأةٍ خلفي وقد زاد تركيزي على حركاتها فراقبتها وهي توزّع أنظارها على قبورها الثلاث

وقد بلغت من العمر ستين عاماً

فاستأذنتها تلك المرأة الستينية التي أثارت فضولي تُرى أي هذه القبور لفقيدها!!!

ولمَ لا تقبّل التراب كما تفعل باقي النساء المجاورة

ورحتُ أحادثها ولكنني أجهل بداية الحديث ماذا أقول أبإمكاني أن أعزيها بفقيدها أو أواسيها أم أسألها عن سبب وجودها هنا لا لا ما هذا الخيال المحدود

فأخذتُ من الماء حجتي لأكلّمها

-مرحباً يا خالة

-أهلاً ابنتي

-أتقبلين مني أن أهدي فقيدكِ رحمه الله هذا القدر من الماء فأسقيه حتى يذهب الظمأ عنه

-الشهيد لا يظمأ يا حبيبتي فقد كرّمه الله حياً وميتاً كما أنهم ثلاثة لا واحداً

اتسعت فتحة عيناي وهي تقول ثلاثة فأكملت

- إنهم أولادي الثلاثة "مجد- أحمد وبلال " استشهدوا فتركوني وحيدةً أنتظر إذن الله باللحاق بهم فقد تاقت نفسي للقائهم ولكنني أحيا بأمرٍ من ربي لأجلهم كي أدعو لهم بالرحمة والمغفرة

نظرت إليها نظرة كلها حزن وإشفاق فهي وحيدة كما أن الذي مر بها أعظم من مصيبتنا وأكثر قسوةً ومرارا

فأخبرتها بما حدثتني نفسي وأنا أرشف الماء بأصابعي المتأثرة بالحال على قبور أولادها

- أسأل الله أن يقوي الإيمان بقلوبنا ويصبرنا على بلائنا فأراكِ يا خالتي قويةً صلبة رغم مصيبتك وأتمنى أن يجعل الله لك نصيباً من السعادة في هذه الحياة ويدخلكِ وأولادك جنةً عرضها السماوات والأرض التي أعدّها سبحانه للصابرين القانتين

-حفظكِ الله يا ابنتي أبني من الآن بيتاً في الجنة بإذن الله كما أنني لا أسعد ببيتٍ خالي فأرسلتُ أولادي إليه ولولا رحمة الله وعفوه لكان حالي غير الذي ترين

-ودعتني أم الشهداء الثلاث بابتسامة بائسة فيها موتٌ وحياة

أملٌ وألم كل المتناقضات وجدتها بابتسامتها الأخيرة

وعدتُ لأمي أقول

-انهضي يا أماه هذا يكفي رحم الله أخي فلنعود بأسرع وقتٍ إلى المنزل ها هو الطيران يحلّق فوقنا ولا بد أنه ينوي الشر فلنسرع لنطمئنّ على أخوتي فعدنا وأبي للبيت من فورنا

أحسستُ أن مقابلة أم الشهداء الثلاثة أشبه بمعاتبة من الله على حزني المفرط لفراق أخي وقد بالغتُ بردة فعلي والحمد لله على كل حال، عدنا إلى المنزل

حيث يسود الظلام ولا وجود للكهرباء في حينا كما أنهم قطعوا الاتصالات فما كان بالمستطاع وصول أي خبرٍ من صديقاتي حتى رزان التي كانت قُرب البيت وقرب القلب خرجت مع عائلتها بعد فقدانها أخيها وقد ازداد القصف بالصواريخ والبراميل على الحي في المرات الأخيرة التي أودت بحياة الكثيرين

واستمرت الطائرات بالقصف واقترب أكثر فأكثر صوت دوي الانفجارات.

أخذت أخوتي وجلسنا في الغرفة الداخلية من منزلنا تحسّباً لأي أمرٍ طارئ أما والداي فقد انشغلا بقراءة القرآن والأدعية

استمر القصف العنيف لمدة يومين متتابعين واقترب منا كثيراً فأصبح الحي كمدينة الأشباح إذ لم يبقَ به أحدٌ سوانا ومعنا ثلاث أو أربع عائلات نحن الذين لم نستطع الهروب قبل الحصار الذي فُرض علينا

اختفت أصوات الانفجارات في اليوم الثالث عشر على التوالي خرج أبي لكي يستكشف الأخبار علّه أيضاً يقدر على تأمين بعض الخبز فأخوتي الصغار يتضورون جوعاً ولم يبقَ في المنزل شيء يؤكل

مريم

خرج عماد ليأتينا بطعامٍ يغيثنا فقد قرقعت المعدات واصفرت الوجوه -لا تتأخر بالعودة حتى وإن لم تجد الأكل فهذا أحسن من أن ينشغل بالنا عليك

كانت هذه وصيتي قبل خروجه بالباب ففي الفترة الأخيرة صرتُ أخشى عليهم من الهواء

مرت ساعاتٌ ثلاثة ولم يرجع عماد فراح القلق يتخللني وأخذ الصبية يبكون فقد ثقل عليهم تحمل الجوع أخذتهم شقيقتهم براءة وبدأت تروي لهم القصص التي أخبرها إياها أخوها أحمد بطفولتها حتى يتعدى الوقت لقد تأخر كثيراً

أيُعقل أن يحدث له شيء!! اصمت أيها المتشائم

لا تكترثين فهو كثيراً ما يثرثر

نهر قلبي عقلي العجول وطمأنني

ماكنت أريد أن أقلق براءة لكنني فعلتها بعفويةٍ وحماقة

حين سألتها

- قد تأخر والدكِ كثيراً وأخشى ...تأخر أليس كذلك!!!

-بلى قد تأخر قليلاً لكنه يبحث عن خبزٍ أو أي شيء نأكله وأؤكد لكِ يا أماه أنه لن يأتي بدونه

-يأتي الآن إن شاء الله

براءة

أوشكت الشمس على الغروب وما زال أبي خارجاً ذهبت لارتداء معطفي بهدوء وأنا أمشي على أطراف أصابعي لكيلا أثير انتباه أمي التي نامت لتوّها

وما إن توجهتُ إلى الباب لأحرك يده للأسفل حتى بدأ القفل بالتحرك بغير تحريك شعرتُ بأمانٍ وكأن جبالاً وُضعت على عاتقي ثم أُزيلتْ

-أين كنت؟ لقد تأخرت كثيراً

نظر إليّ بابتسامة

-كثيراً!!

أيعقل أن أترك زوجي وأولادي جيّاعاً وأعرّض نفسي للخطر فأعود ملوّحاً بكلتا يديّ وأصفّق بهما فأخبركما بأنني لم أجد شيئاً يسد جوعنا

خذي هذا الخبز بلليه بالماء لنأكله فلم أجد غيره

-هذا أبي الشجاع الذي حدّثتُ أمي عنه قبل قليل حماكَ الله لنا يا سنداً يحمل أعباءنا ولا يأبه بثقلها وزيادة وزنها

ضحك أبي فاستيقظت أمي على صوتنا

بينما أخذتُ الخبز أحضر الطعام فيه

كان حوار أمي وأبي

- أبـا أحمـد لقـد قلقـتُ عليـك يـا رجـل ألا تخـاف أن نُصاب بالمرض

أجابها ضاحكاً

-لا تخـافي إننـي هنـا أمـا زلـتِ تحبـين وجـودي معـكِ وتخافين عليّ

كمـا أننـي أخـاف عليـكِ مـن حبـك لـي وحبـي لـكِ أخـاف عليـكِ مـن أمومتـكِ المفرطـة وأنـانيتي الذكوريـة أخـاف عليكِ مما ستتحملينه في السنوات القادمة

-لا داعـي لمخاوفـك هـذه فمـا سـيمر سـنتحمله معـاً إن شاء الله

وسينقضي كما انقضى الكثير

-إن شـاء الله الطعـام يـا مـريم بـراءة ابنـةٌ بـارّة وطباخـة ماهرة

ضـحكنا جميعـاً لمـزاح أبـي فـالخبز المبلـل الـذي يعتبـره الآن طبخـاً مميـزاً كـان يغضـب حـين لا يجـد غيـره فـي السابق

وقـال أبـي بعـد أن دلفنـا للغرفـة الداخليـة حيـث مكثـوا أخوتي الصغار

هيّا تناولوا غداءكم بسرعة وتجهّزوا للخروج فتتقول العامة بأن هذا الهدوء ناتج من هدنةٍ فرضوها ليجهّزوا عدّتهم وقوتهم بالجيوش والأسلحة

سنخرج جميعنا غداً.

بدأتُ وأمي بتحضير الأغراض اللازمة وأخذ والدي يجمع الأوراق المهمة كانت هناك فرحةٌ باهتة بعض الشيء من جانب سينتهي فلم الرعب الذي نعيشه كل يوم ومن جانبٍ الآخر سنترك بيتنا وأهلنا وغرفتي الجميلة وأيضاً أحمد....

عماد: حين خرجتُ قاصداً سبيلاً للفرج سمعتُ أصوات الأجهزة اللاسلكية حيث بثّت أخباراً تُخيف حقاً وقد كانت مقنعة بالفعل فما كانت هدنتهم هذه إلا ليستعيدوا قوتهم ويعاودوا الهجوم مجدداً بقوةٍ وجيوشٍ وأسلحة مضاعفة

ما أقبح تفكيرهم حين يتّبعون سياسة الأرض المحروقة التي عرفوا أنهم لن ينالوا منها وهي خاوية ففضلوا احتلالها جدباء على أن تبقى خضراء لأهلها

براءة

جاء الصباح فخرج أبي يحمل الحقائب وساعدتُه بإنزالها

كما أن أمي أخذتْ وعد وسلام الصغيرتين

حيث استقلّيْنَا إحدى الحافلات الخضراء لون السلام صعدنا أنا وإخوتي ووالدَينا فجلستُ بجانب النافذة لأودع بيتي غرفتي وأحمد حينا طفولتي وأصدقائي حيث هناك الماضي ولا أدرِ إن كان المستقبل أيضاً

بينما نحن بالطريق وإذ به الحاجز الأمني يستوقفنا للتفتيش حيث قاموا بإنزال جميع الركّاب وبدأوا بتفتيش الرجال حيث سحبوا هوياتهم وراحت الأطفال تبكي خوفاً من مناظرهم فهم مدججين بالسلاح أخبرهم أبي بأننا خرجنا من الحصار ونريد المرور من هنا بسلام فضحك القائد بخبث وأكمل قائلاً

- ستمرون ولكنكم ما رأيتم من بعض ما عندنا ألا نضيفكم!

سكت أبي وقد شعر بالقلق

وراحت عناصرهم تعزل الرجال عن الأطفال والنساء وأمرنا قائدهم بصعود الحافلة وتبقى رجالنا معهم حاولنا أن نصدّهم ونقف في مواجهتهم وظننا أنهم حين يرون تماسكنا واتحاد كلمتنا ستنتشر المخاوف في قلوبهم

ورفضنا الخنوع بكل ما نملك من قوة فلم نقبل أن نترك رجالنا أو نموت دونهم فضحكوا كلهم بسذاجة وأخذوا يُلْقِمُونَ الأسلحة بالصعود فأبينا مرةً أخرى ولكن بعد صراخ أبي ومَن معه صعدنا والبكاء يقيم حفلاً في عيوننا

عماد

أنزلونا من الحافلة وعزلونا بمفردنا كرجال فبدأوا بركلنا واحداً تلو الآخر ما إن وصلوا إليّ وقد تمنيتُ لو أن السائق يكمل طريقه فلا تراني أسرتي بهذا الضعف

لكنها ثمة أمنية لم تتحقق لا بأس سأضيفها لأرشيف أمنياتي التي خابت

وراح قائدهم يضرب كل مكان في جسدي.

. رأسي بطني ظهري كل ناحية من جسمي نالها نصيبٌ من لؤمه

صرخت براءة قائلةً

- اتركوه أيها الأنذال اتركوه فأنتم لا تخافون الله وبدأت تجهش بالبكاء قيدوا أيدينا وألبسونا قمصاننا في رؤوسنا

فنزلت مسرعةً

- لا انتظروا أرجوكم هذا أبي ليس لنا سواه

-فرد عليها بتلاعبٍ وكذب ألا تريدون الأمان فكيف نترك المجرمين هنا وهناك، ما نفعل هذا إلا لحفظ سلامتكم وسلامة البلد

-لكنكم أنتم مَن تفسدون هذا البلد وتدّعون إصلاحه دون أن يطلب أهله هذا منكم بالله عليك مَن هؤلاء أتعرفهم؟

أنا سأخبرك

هذا أبي مدرّس اللغة العربية في مدرسة يوسف العظمة وقد كافح وناضل إلا أن صار عنصراً فَعَّالاً بمجتمعه يفيد بلده ونفسه

وهذا طلال طبيبٌ جراح مشهور درس على ضوء الشموع فأذاب أثناء دراسته آلاف وملايين الشموع وذلك لفقر حاله واليوم هو طبيب ماهر يكافح ويناضل حتى يعيش حياةً كريمة وينفع شعب وطنه

والذي على يمينكَ أيها القائد فهو مزارعٌ نشيط اعتاد منذ الصغر على الاستيقاظ باكراً ليعمل في اَلْأَرَاضِي فيزرعها لتثمر ويحصد ما زرعه فيعيش وترتقي فيه البلد اقتصادياً وزراعياً

أود أن أكمل لكَ البقية لكن الوقت لم يكن لصالحنا أخبرني مَن أنت وما الذي تفعله هنا

-اخرسي

-لا تشتم يا أستاذ

-سيدي"""

-لم تكن سيدي

سمعتُ صوتها وقد ركلها بحذائه الضخم وشعرتُ بأحد أضلاعي ينكسر لا بل كلها تمزقت لصوتها

تمنيتُ لو أتمكّن من إزاحة القميص المغطّى لعينيّ الذي يحجبهما عن رؤية المشهد كاملاً فكم أحببتُ قوة براءة التي عرفتها صغيرةً رقيقة لا تملك صلابةً ولا قسوة

وحين سمعتُ أنينها تمنيتُ لو أنها ترى ملامحي فترجع لأمها وإخوتها وتدعني لمصيري

وحين عرفتُ أن كلا الأمنيتين السابقتين لن تتحقق تمنّيت لو أن الأرض تنشقّ فتبلعني ولا تعيدني أبداً

كما تمنيت لو أنني لم أتزوج وبالتالي كان الحمل أخف والمسؤولية أسهل لا حزن على أحمد فإن وقعت الأمنية فلا وجود لأحمد بالأصل ولا ألم على حال براءة وإخوتها ولا خوفٌ على الحب الذي أراه ينحدر أمامي من تحت الظلمة التي أضفاها القميص ولكن ما بالي أكثر بالأمنيات

وما نيل المطالب بالتمني تؤخذ الدنيا غلابا

براءة

تذكرتُ المرأة الستينية والدة الشهداء الثلاث وقوتها وكأنني قد شُحنت قوةً بمرورها في ذاكرتي فواجهته بحقيقةٍ يخشى أن يواجهها أمام مرآته إن كان له قلبٌ ليخشى فيه وإن كان ينظر في المرآة أيضاً فشكله ينمّ

على شخصيةٍ تثير الاشمئزاز وما كان منه إلا أن يسكتني بالعنف فركلني بقدمه ذلك الطويل ذو الندبة على وجهه التي لاحظتها من أول لحظةٍ جمعتنا فتشاءمتُ من منظره البشع وكان ظني بمكانه فقد كان شنيعاً من الداخل كما كان ظاهرياً

وقال لي اغربي عن وجهي أيتها اللعينة

ما كان مضطراً لشتمي فقد فعلت ضربته بي أكثر مما كانت ستفعله الكلمات حيث طرحتني أرضاً وشعرتُ بالدنيا تدور من حولي ورأيتهم أشباحاً فأرهبني المنظر

وحينها ركضت أمي وساعدتني لأنهض مجدداً وأقف لأقول بوجهه

- لن تستطيع فعل غيرها أليس كذلك أيها الشهم

-آخر مرة اصعدي الحافلة أو فلتموتي

فرقّت لهجتي وأنا أقول

- وأبي أين تأخذوه ما الذي فعله رجالنا لتأخذوهم به

-ألا تعرفين ما فعلوا فقد عرفتِهم جيداً وتعلمين ما الذي جنوه

- هؤلاء أشرف وأطهر منك أيها السيد القذر

حاوطوني جميعاً بأسلحتهم إلا مَن وقفوا مع الرجال ليحرسوهم إذ لا مجال لهروبهم

تقـدمت أمــي وتوسّـلت لـذاك الـوحش الغاشـم ليـدعني فقال بصوتٍ فظيع الخشونة خذيها فوراً قبل أن. . ..

وسـكت لتسـحبني أمـي غصـباً وتصـعدني ثانيـةً للبـاص حيـث ألحّـت علـى السـائق مـراراً وتكـراراً أن ينتظـر عودتي ويخاف أن ينزلوه معي ما أضعف قلبه.

مريم

مـن لحظـة إنزالنـا جميعـاً مـن الحافلـة اجتـاحني خـوفٌ رهيـب فأشـكالهم تشـي بـالتجبر والظلـم لا رحمـة فـي قلـوبهم واسـتغرقتُ فـي التسـبيح والأدعيـة اللهـم خـذهم مـن بلادنـا أخـذاً عزيـزاً مقتـدراً وحـرر أرضـنا الطـاهرة مـن دنسـهم اللهـم إنـي أسـألك الرحمـة لولـدي ولكـل الشباب الذين استُشهدوا فداءً لهذا الوطن

وحين بدأتْ براءة تحادث أميرهم، قائدهم، سيدهم

كما سموه أو سمّى نفسه بنفسه

شـعرتُ بـالقلق وحـديثٌ داخلـي متعـب دار بـين عقلـي وقلبي

-كيـف لهـم أن يـدعونا وأمرنـا بعـد كلامهـا هـذا كـم أنهـا متسرعة

-ولكن ما تقوله صحيح

- صحيحٌ بغير موضعه

- هـذه التــي كانــت تبكــي مــن تنمّــر أولاد المدرســة اشــتد عودها الآن لتقف أمام هذا الظالم، كم أنها قوية وذكية

-لو أنها ما فعلت لتركوا عماد من فورهم

-لكـنهم حتـى الآن لـم يتركـوا أحـداً مـن بـاقي الرجـال رغـم أن أهلهم صامتين لا حركةٍ منهم ولا كلمة.

-لـو أنهـا صـبرتْ وكظمـت غيظهـا لكـان التعامـل مـع أبيهـا كغيــره لكننــي متأكــدٌ أنهــم الآن سَــيُمَيِّزُونَهُ عــن غيــره بالتعـذيب وذلــك كــي تتفــوّه ابنتــه المتسـرّعة بكلمــاتٍ لا جدوى منها

-لكــن مــا قالتــه سيصــف العــرب جميعــاً لــم نسـكت عــن حقنا رغم قوتهم وإن علَوا بالسلاح نرتقي بالفكر

هذا كله وقلبي يلتهب

تَــرَاهُمْ بــمَ يخططــون حتــى أخــذوا الرجــال ومــا الــذي سيفعلونه بهم

ولكــن عنــدما بــدأ الحــوار يأخــذ مجــرى آخــر وصــارت بــراءة تتحــداهم فضــربها الغبــي اللئــيم أســرعتُ مــن فــوري وصــحبتها للبــاص يكفينــي فــراق أحمــد والآن عماد الذي لا أعرف له مصير مع أولئك الفجرة

وبعـد أن دخلنـا الحافلـة وجلسـنا علـى أرضـها حيـث لـم يبـقَ لنـا مكانـاً وقـد نامـت الأطفـال كمـا أن العجـائز راحـت تســتلقي مــن تعــب الأمــراض والآلام التــي تشــتدّ عنــد الخوف والحزن

سـمعتُ قائـدهم ينـادي خـذوهم إلـى السـجن أصـابتني كلماته بالألم والأمل

- فربمـا بسـجنهم يبقـى سـنين طـوال يعـاني التعـذيب والذل

- لا يمكـنهم إذلالـه بسـلاحهم فشـلوا مـع ابنتـه فكيـف لهـم أن ينجحوا معه

- قـتلهم الله ولكـن السـجن الطويـل يـوهن العظـام والمفاصل يوهن العقل والقلب ما الذي سيخرج معه

-تفـاءلي مـا بـك وربمـا يحـين الفـرج قبـل ذلـك ربمـا يلحـق بنا الآن

لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا

المهم الآن أنه حي لم يمتْ

انتهـى الحـوار الـذي جـرى داخلـي فـي لحظـاتي الأخيـرة كنـتُ أتحـدث داخليـاً هنـاك فـي أعمـاقي أكثـر مـن كلامـي مع مَن حولي

فمسـحتُ دمعـاتي التـي جـرت وتعـذر علـيّ مسـح الأخريـات الداخليـة التـي كانـت مالحـة علـى فـؤادي الـذي جُـرح لا لـم يُجـرح بـل وكُسـر وتحطـم سأضـم أشـلاءه وأحمي ما تبقى منه لأولادي وما بقي من حياتي

براءة

لم يبقَ لنا أي أحد فقد ذهب أحمد وها هو أبي اعتقلوه لا نعرف عنه شيئاً حتى يشاء الله

ولا يمكننا أن نفعل شيئاً مهما كان بسيطاً بكت أمي بحرقة وهي تقول

- لو كنتُ أعلم أن هذا مصيرنا لرفضت الخروج وبقينا في منزلنا ننتظر موتنا أقل ما يمكن أننا سندفن سوية وهذا لا بأس به أفضل من حالنا هذا

-هوني عليكِ يا أماه حكم الله فينا فلا نعترض عليه

وضعت يدها على رأسها وقالت إلهي قد تعبت فخذ روحي التي طال تعذيبها

نظرت إليها معاتبةً

-وكّلي الله يا أمي فهو لن ينسانا ولكن ما هذا أتتركيني وحدي! أجابتني بنوبة بكاء هستيرية وكأنها تقول لا لن أستطيع يا بنتي

ساد الصمت داخلي لا أعرف ما الذي أفعله أو إلى أين نحن ذاهبين وكيف سنعيش وحدنا، هكذا كنت مشتتة الهواء يخنقني والماء يزيد من ظمئي ولا أعرف ماذا أفعل. . .

مرت ساعات وكأنها سنين ما أثقل

تلك الأيام

وما أقسى ظروفنا التي تلطمنا حيث نتوجه

أسندتُ رأسي على النافذة وصرتُ أبكي بصمتٍ والحزن يسود الركاب فجميع مَن هنا كان له معتقل مجهول المصير

كان المشهد مأساوياً جداً، الوضع سيء والظلام يعمّ الأرجاء فالجميع يبكي بصمت يا ويلتي لا أعرف ما الذي أفعله لكنه توجب عليّ التظاهر بالصبر والقوة فأمي وإخوتي بحاجة مساندة ولا يمكن لأحد أن يقدمها لهم بعد الآن سواي مسحتُ دموعي وسألت السائق متى وإلى أين نحن سنصل

بنبرةٍ حادة التفت جميعهم إليّ بما فيهم السائق باستغراب وبقوا شاردين نظرتُ بقوةٍ مصطنعة قائلةً

- **ما بكم هل سنبقى نبكي إلى الأبد أو نستمر بالحزن أعوام.**

هذه الحرب وستمر على الجميع وسنحارب أيامنا كما تحاربنا فالحرب من طرف واحد قاسية والدنيا ستستمر ولن تقف على أحد سنعيش من أجل أولادنا وأمهاتنا وإخواننا وسنحارب من أجل غدٍ أفضل هؤلاء الذين سُحبوا من بيننا سنعيش لأجلهم ولأجل عودتهم لنا سالمين

حمد كل مَن في الحافلة ربه واستغفره

قال السائق هذه هي فتيات سوريا هذا ما سمعناه عنكم ثم أكمل قائلاً ساعات معدودة أقل من تلك التي مضت وسنصل إلى مناطق الحدود السوريّة

أمسكت أمي يدي ونظرت إليّ بعينيها اللامعتين المنتفختين من شدة البكاء وقالت: على الرغم من كل ما مر علينا من ألم والذي سيمر إلا أننا سنحارب بصمود وستبقى ابنتي التي لن تخيّب أملي مهما عصفت بنا الأيام

-نعم سنبقى أقوياء ومر بشريط ذكرياتي تلك القدوة التي مررتُ بها مسبقاً والدة الشهداء صاحبة الإرادة والصبر

توقفتْ الحافلة ها قد وصلنا الحدود السورية الآمنة.

أخبرنا السائق بعد أن أوصلنا أن نذهب إلى مكتب إدارة المخيم لكي يعطونا خِيمنا ونستقر

ذهبتُ مع أمي وإخوتي إليهم فأعطانا المدير خيمتنا لقد كانت من رقتها لا تحجب عنا حرّ الشمس ولهيبها لكنها تفي بالغرض نوعاً ما نصبتها بمساعدة أمي وأشخاصٍ هناك

فوضعنا أغراضنا فيها ثم أدخلنا وعد وسلام لتهدأ حالتهم على ما يبدو قد أصابتهم حمى شديدة

وذهبتُ للمنشأة الإدارية لأطلب

الخبــز أو أي شــيءٍ آخــر يؤكــل فنظــر إلــيّ نظــرةً اســتفزتني حيــث رفــع حاجبيــه بعــد أن تحــدثتُ كثيــراً وشرحتُ له وضعنا

- ماذا تريدين أيتها الجميلة

-كــان وضــيعاً دنــيء الــنفس ومــع ذلــك اســتخف بــي واستهزأ بطلبي

فرجعتُ خطوتين وأعدت

-أقول إن كان هناك خبزاً أو أكل

-لــم يكــن هنــا يــا أميرتــي بيــت مــالٍ للمحتــاجين الــذين يتكففــون النــاس بأيــديهم ولا جــدوى مــن هــذا فــلا تعــودي لمثله

ســتأتي إلــيكم المســاعدات مــرة واحــدة كــل شــهرين فتعيشون بها

-مــا أتيتــكَ لأتســول، ســبحان الله كيــف تتغيــر النــاس لا أراك منــا بقــدر مــا وجــدتك مــنهم تتشــفى بأبنــاء بلــدك يــا لها من رجولة

- رجولة لا تعجبكِ إذاً أيتها الفاتنة

-لم آتي أصلاً كي أُعجب بها أو أدبر عنها

خرجــت وقــد تمــزق داخلــي لا بــل هــو ممــزق مــن قبــل ثــم سمعت نداءً بصوتٍ ندي

-من هنا يا ابنتي؟

التفت خلفي وإذا به سبعيني العمر اقترب مني وهو يحمل الخبز وفي يده الأخرى صحن من حبات الزيتون وآخر فيه لبن

-أنا!

-نعم أنتِ حديثي الوصول أليس كذلك!

-نعم يا عماه للتو وصلنا

أكمل قائلاً لا بد أنكم خرجتم من الحصار ولا يوجد لديكم شيء لتأكلوه خذي هذه وأطعمي أهلك لقد كانت عيناي مليئة بالدموع وأجهشتُ بالبكاء دون أدنى إرادة حيث فقدت سيطرتي على دموعي

- لا يا بنيتي لم أقصد هذا أنا فقط. قاطعته بقولي: ليتنا بقينا بالحصار ولم نقدم إلى هنا فالغربة والتشرد ليستْ أقل وجعاً من القصف ربّت على كتفي وقال

- مررنا جميعاً بالصعاب التي تودي بالجبال ولكن الأهم من هذا أننا تجاوزناها ومَن قدر على أن ينجو من القصف والخطر أجدر به أن يتخطى هذه الأيام التي قد تبدو قاسية إلى حدٍّ ما لكنها ستمضي هيا خذي هذه من يدي واذهبي لخيمتك فقد حل الظلام

أخذتها وكم تمنيتُ أن أشكره عليها وعلى كلماته لكنني لم أستطع فشعوري بالاختناق كان يطاردني وأظنها محطتي الأخيرة

وذهبت على عجلةٍ من أمري نحو الخيمة قبل أن أدخل استجمعت قواي النفسية أبي، صديقاتي، حلمي،

أحمد كل تلك الحيثيات جررتها لذهني كي أستعيد الأمل بداخلي

ودخلت خيمتنا استقبلني كل من وعد وسلام بابتسامةٍ يشوبها الألم فقد جاعت معداتهم بما فيه الكفاية

قالت وعد بعد أن رأت ما بيدي

-تعيش قائدتنا براءة لقد أتتنا بطلتنا بالطعام فلنأكل هنيئاً مريئاً من يديها

وضعته وبدأتُ بإطعامهم

- أمي لمَ لا تأتين للأكل

- لا أشتهيه

- تعالي يا أماه فحبات الزيتون هذه أطيب من تلك التي تنضجينها في المنزل

قالتها وعد بتهكمٍ وضحك

فابتسمت أمي قائلةً أيتها الماكرة ثم نظرت إليّ لأرى الدموع في عينيها حيث أخفتها بإصرار إلا أنها رفضت المكوث والأسر لتطلق حرةً وتجري على خديها فأشاحت بوجهها حتى شبع الأطفال

ذهبتُ إليها

-لا بأس عليكِ يا أمي اصبري قليلاً ولن يحصل إلا الخير

-لكنني سئمتُ الانتظار

-أي انتظارٍ هذا وأين نحن من أولئك الصابرين

وذكــرتُ لهــا قصــة أم الشــهداء الــثلاث وقوتهــا علــى الصبر

-أعــرف يــا حبيبتــي أســأل الله أن يقــوي الإيمــان فــي قلوبنا ويربط عليها

-يقول عمر المختار ذاك العملاق التاريخي

الضربة التي لا تقسم ظهرك تقويه

فلنجعل هذه الأيام لنا لا علينا

-سنفعل عندئذٍ نلقى أباكِ الحبيب ينتظرنا بفخرٍ لنجتمع به وتكون لنا عيشة أفضل من ذي قبل

-تماماً، هذه أمي التي أعرفها حيث علمتني الصبر ومجاهدة النفس

عانقتها بحسرة ويأس لكنني منحتها جرعةً غريبة من التفاؤل والأمل

كيف يقولون فاقد الشيء لا يعطيه

في الحقيقة أنا أؤمن بصحة هذه المعلومة ولكنني لا أعرف إن كنتُ قد أعطيتها أملاً من نفسي ولم أتأكد من عدم وجوده أم أنها تمثل دور المتفائلة كي تهوّن عليّ الأمر

بعد أن نامت وعد وسلام حاولتُ النوم فلم أحظَ به لأراها يقظةً لم تنم بعد

-هل أنتِ جائعة يا أمي هناك بعض اللبن إن أردتِ

-لا ولكن النوم حاربني كما فعلتْ بنا الأيام

-أمي أهناك حرج لو طلبتُ منكِ قصةً تسردينها لي حتى أنام فأنا أيضاً تاه النوم في طريقه إليّ

-لا يا حبيبتي

يُحكى أنّ فتاة في الرابعة عشرة من عمرها حلمتْ أن تلمس القمر فسخر منها كل مَن حولها على هذه التخاريف والأوهام التي تراودها

أما والدتها التي كانت بيت سرها ووالدها ذاك الشهم النبيل فلم يكسرا قلبها كما فعل الكثير وشجعاها لتحقق ما سخروا منه وظنوه مستحيلاً زرعوا الإرادة داخلها كما يزرع الفلاح بذوره وكان لها أخوة صغار لا يعرفون من الحياة إلا القليل كما أن صديقاتها اللواتي منحنها الحب على طبقٍ من ذهب ابتعدن عنها فباتت وحيدة في الظلام تبحث عن طريقٍ يأخذها للقمر كمَن يبحث عن إبرةٍ في أكوامٍ من القش

بينما كانت تحكي أمي كنتُ أنا مغمضة العينين أتخيل أمامي الصعوبات التي تواجهها وساعدني في ذلك تباطؤ كلمات أمي حتى قُطعت

-أمي أكملي فما زلتُ أسمعك وتأخذني المتعة لأتخيّل الفتاةْ الحالمة.

أمي نمتِ كعادتك؟

لا بأس جلستُ أراقب النجوم في السماء وركزتُ نظري على نجمي المفضل كما كنت أفعل بين

صديقاتي حيث اختارت كل واحدةٍ منا نجمها المفضل الذي سيشهد محاولاتها ويخوض معها التجارب حتى الوصول وتذكرتُ أبي فدعوت الله أن يفرج عنه كربته ويحلّ القيود أمامه

استلقيت بفراشي وحاولت النوم ولكن لم أستطع تأملتُ نوم وعد وسلام وأمي ما أجملهن تُرى كيف يفعل أبي في هذه اللحظة وما الذي سأفعله غداً، ما هو السلام الذي ينتظرنا حيث وعدتُ به أخوتي ومن أين سأجلب المال وأنا على هذا الحال اللهم أرشدني فلم تعد روحي تطيق التعثر أكثر أين أنتنّ يا صديقاتي؟ ليتنا سوية فأنتم مصدر قوتي، أغمضتُ عيني غصباً وحاولتُ النوم إذ كانت من أصعب الليالي بعد ليلة فقدان أخي نفس الشعور ونفس الألم ولكن المكان مختلف في الخيمة التي يعم أرجاءها الظلام ونسيم الألم والظلم موجود...

في صباح اليوم الباكر استيقظتُ خارجةً لاستنشاق بعض الهواء لا أشعر بتغير شيء فما نهاري إلا كالليل الذي حل مكانه دلفتُ مجدداً

-أماه أتطيلين النوم بعدي والله هذه معجزة

-هيا يا أمي انهضي لنفكر معاً بترتيبٍ جديد

-مستعدةٌ ابنتكِ للعمل فقط عليكِ توجيهها

لا حياة لمَن أنادي كل كلماتي تلك لم تغضبها كما كنت أفعل حين تناديني وتبدأ بالأعمال المتوجبة عليّ بعد إيقاظي

-أمي مريومة هيا انهضي

مسكتُ يدها فهوت من يدي كما أن رأسها الذي هززته بذعر لم يستجب لصوتي ولا لحركاتي

-أماااااااااه ما هذا بالله عليكِ اشرحي لي

بدأتُ أصرخ بها فاستيقظت وعد وسلام مذعورتين من صوتي وبدأتا بالبكاء أمي ما بك

-براءة لم تمت أمي أليس كذلك

لم أجد ما أرد عليها به فأنا لا أصدق مثلها.

موسى

بينما كنتُ أحضر الفطور لابنتي شام وقد نويتُ أن أستدعي تلك الفتاة الجديدة في هذا المخيم لتفطر وأهلها معنا بدأتُ أسمع نحيباً وولولة أطفال كما استيقظت شام بهلع تقول

-أبي ماذا هناك أسمع أصوات بكاءٍ وصراخ

-لستُ أدري سأخرج وأرى بنفسي

ذهبتُ متجهاً نحو مصدر الصوت حيث بدأ يخفت فحاولت أن أعجّل من خطواتي

لأجدها تلك الفتاة تبكي وأمامها امرأة ثلاثينية أظنها ودعت الحياة قبل قليل

-أنتِ!!

-نعم براءة يا عماه وهذه أمي هل تساعدنا يا عم فأنا هنا فقط مع أمي التي أمامك وهاتين الطفلتين

-بالتأكيد

قدمتُ على أمها وألقيتُ الرداء على وجهها

-ما الذي تفعله أيها العجوز أهذه مساعدتك

-سندفنها يا ابنتي إكرام المتوفى في أن يُدفن

-أأحمقٌ أنت مَن قال إنها ماتت

شعرتُ بالألم عليها فقد فقدت صوابها بفقدها أمها وراحت تشتمني

-الأعمار بيد الله وأمك هذه رحلت للقاء ربها دعينا نكمل مراسم دفنها

أيها الشباب أيتها النساء هنا امرأةٌ ماتت فنناشد أصحاب الخير أن يساهموا في تشييعها

- عماه

جحظت عيناها وشحب وجهها وهي تقولها ومن ثم مالت على صدري وغابت عن الوعي حملتها وأمسكتْ الفتاتان الصغيرتان أطراف ثوبي فاتجهتُ بهنّ إلى شام

-انتبهي لها وانظري وضعها

-ما بها يا أبتِ؟

-لا أعرف أظنه من حزنها على موت أمها، هذه أمانة عندك يا شام فأحسني لهنّ

- سأفعل لا تقلق

أكملتُ مع الناس في المخيم مراسم تغسيلها وتكفينها ومن ثم دفنها وعدتُ من فوري لأطمئن على براءة وأختيها

دخلتُ الخيمة لأجدها مرميةً في حضن شام تبكي أمها

-كيف حالها

- الحمد لله يا أبتِ، فإن براءة فتاةٌ قويةٌ وصابرة بإذن الله.

-إن شاء الله

أخذتُ البنتين الصغيرتين فغسلت لهنّ وجوههن وأحضرتُ لهنّ الملابس فارتدوها ودخلنا معاً لتجهيز أي شيءٍ نأكله

- عمي أمي ماتت حقاً!!

-نعم يا صغيرتي أمكِ الآن بين النجوم تحلّق بوجهها البهي في السماء وأخبرتني أن لديها ثلاثة بنات رائعات سينجحن ويدخلن السرور لقلبها

-كيف ذلك إن لم تكن هنا

-ليست هنا لكنها تعرف ماذا تفعلون فتطمئن عليكم من خلال الملائكة

- لماذا تبكي براءة إذاً

- أصابها تعبٌ خفيف سينجلي عنها بعد قليل

أين والدكِ يا وعد

-ونحن قادمون إلى هنا أخذته عناصر الأمن وقالوا إنهم سيسجنونه

- سيخرج بإذن الله

- أهذا يعني أننا سنبقى بلا أمٍ ولا أب يا عمي

- مؤقتاً حبيبتي مجرد وقت قصير وسيرجع والدك

-إن شاء الله

وأمي لن ترجع إذن

-لا لن ترجع

رجفت شفتاها وابتعد صوتها

-لماذا؟؟

-حبيبتي نحن هنا زائرون سنعيش عمراً ليس بالطويل ونرجع حيث أتينا وهناك عند الله كل شيءٍ أجمل خلقنا سبحانه ليرى كيف نفعل فإما أن نرضيه بتصرفاتنا فيدخلنا جنته ويذيقنا من النعيم أو نعصيه فندخل النار ونتعذب في الجحيم

- أمي ستدخل الجنة أليس كذلك

-إن شاء الله أكانت تصلي

-نعم كانت تصلي كل الأوقات وتقرأ القرآن والأدعية وازدادت صلاتها بعد استشهاد أخي أحمد

-رحمه الله، بإذن الله سيكونا في الجنة معاً فلنفعل ما يرضي ربنا لنلحق بهم بأذن الله.

-سنفعل

-وأنتِ يا سلام ألا تتكلمين

- لا يا عمي لم تتكلم بعد

-كم عمرها

أربع سنوات لكنها لم ترضع الحليب من أمي قط ولهذا تأخر نطقها

- أنتِ ذكيةٌ جداً يا وعد

غداً تتكلم بإذن الله فإنها ذكيةٌ كأختيها أليس كذلك يا سلام

هزت رأسها بالقبول

-الآن صار غداؤنا جاهزاً

عماد

بينما انتظرتُ طويلاً أن تتحرك الحافلة بهم فقد أتعبني منظرهم وهم يبكون ويرجون من هؤلاء الأنذال أن يدعونا معاً

انطلق السائق بهم فودعهم قلبي طالما كانت عيوني محجوبتين عن رؤية تلك المشاهد المأساوية وبعد ساعاتٍ من سحبنا في الطريق كلاً من قميصه

وصلنا السجن الذي تحول لملاذٍ نطمح إليه حيث رأينا الموت داخل العتمة في الطريق

أدخلني ذاك المجرم فرعٍ جنائي فتلقّيتُ أقسى أنواع التعذيب فيه ورأيتُ الذل بكلّ أشكاله والضعف بألوانه

كان بعد الضربات واللكمات المستمرة دور الصلب فصلبوني ومعي آلاف الشباب على حائط السجن طوال الوقت كنت أنتظر تلك الساعة التي سأنظر في عينيّ ذاك الوضيع وأتكلم بجرأةٍ كتلك التي حدثته بها ابنتي براءة لكنه للأسف لم يكن هذا اللقاء

أردتُ أن ألقّيهم درساً بأن العرب ذو لحمٍ مُرّ فمن المستحيل أن ينهشوا به حاولتُ أن أشرح لهم عن الخبث والطغيان الذي عندهم ولكن ثمة شخصٍ لم أقابله لا أحد يبالي بوجودي هنا حتى تعذيبي أوكلوه لجنديٍ حقير ما كان ليسمعني أو يحادثني كانت لغته الوحيد التي يفهمها هي الضرب

الأطعمة والماء كلها تمر أمام ناظري ولا أنال منها سوى النظر

لعنهم الله وقتلهم في طغيانهم وتجبرهم وبعد مرور أسابيع لم أميز ليلها عن نهارها فالعتمة هنا سيدة المكان وقعتُ أسيراً عند أولئك الجبناء وللموت فقد تلفت أطرافي من شدة الربط عليها وماتت الأعصاب داخلها أما جلدي فقد نهشت فيه ديدان الظلم حيث تقرحت الجروح وتسلّخ اللحم والتهب قلبي فزاغ بصري وجف لعابي لأسقط أرضاً لولا الحبال الحديدية التي ثبتوني من خلالها على الحائط

وعندما اقترب أجلي وانقطع أملهم مني كما ينقطع عمل الإنسان بعد وفاته

فأردفوني إلى سجنٍ آخر لا أتعذب به ولكنني أبقى أسيراً هكذا أخبرني أحدهم وربما هو من أحد المساجين لا أدري ما أعرفه فقط أنني سأرتاح قليلاً من إجرامهم وهم ينقلوني مررتُ بكافة زنازين التحقيق أو الإجراءات القانونية اللازمة كما يسمونها حين يتركون الواحد فيها حتى ينتشله الموت ولا ينفد إلا بذلك كنتُ أسحب أقدامي ورائي كما لو أنني أسحب حجارةً ثقيلة عيناي وقلبي وعقلي وكل شيء كبحته ضرباتهم المتوالية عن العمل إلا سمعي فتمكّنت من سماع أصوات النساء يتعذبن ويبكين بحرقةٍ شديدة كنّ يصرخن بكل قوةٍ وألم ويستنجدن بعديمي الأخلاق والشرف ليتني لم أسمع

يـا الله أعـرف أنـك تراني وتنظـر أمـري فـألهمني الصـبر وامنحني قوةً وثبات

اللهـم إنهـم هتكـوا أعـراض المسـلمين فخـذهم بمـا يعملـون اللهـم تـدبرنا بـأمرك واحرسـنا بعينـك التـي لا تنام

بكيـتُ أصـواتهن ودمعـاتهن بكيـتُ صـرخاتهن وأوجـاعهن وقـد ضـاق الكـون بـي ذرعـاً فصـغرت الـدنيا بعيني

براءة

تلقيـتُ صـدمةً كارثيـة عنـد مـوت أمـي فبـدأتُ أحكـي مـالا أقصـد معنـاه قلـتُ الكثيـر للعـم موسـى دون إرادةٍ أو وعـي لا أعـرف كيـف تفوهـتُ بكـل هـذا لـم أقـدر علـى اسـتيعاب هـذا الكـم مـن الألـم كيـف أخـرج مـن عائلـةٍ كاملـة لأكـون وحـدي مسـؤولةً عـن طفلتـين وفـي الخيمـة إذ لا سـكن ولا وطـن لـم أجـد وقتهـا إلا ذاك الرجـل المسـن لأشـتمه بغبـاءٍ وحماقـة ورغـم ذلـك كلـه فقـد سـاعدني وأدخلنـي خيمتـه فكـان لـي أهـلاً أمـا ابنتـه شـام فكانـت لـي رفيقـةً رائعـة رغـم تباعـد الأعمـار والأقـدار بيننا

ومـن شـدة ألمـي وصـدمتي لـم أنتبـه لحـال شـام حيـث أنهـا طيلـة أيـام مكـوثي عنـدهم مـا وقفـت علـى قـدميها قـط وكانت تطلب الماء والدواء من أبيها

وفـي يـومٍ قـررتُ أن أغسـل الحـزن مـن قلبـي حتـى أبـدأ بمحاولـةٍ جديـدة لكنهـا هـذه المـرة للأسـف الشـديد دون طيف أمي.

وجّهـت الشـمس أشـعتها الحـادة علـى عينـيّ فشـقتهما لأسـتيقظ وأواجـه صـباحاً آخـر نظـرت بنصـف عـين لأراه جالساً يشرب كوبه الشاي

-لقد حانت الفرصة

قلتها في نفسي وأنا قادمةٌ إليه

-صباح الخير عمي

-صـباح الخيـر يـا بـراءة كيـف حالـكِ اليـوم أود أن تكـوني بخير

-نعم بخير والحمد لله

ولكن

-ما بكِ أيلزمكِ شيء

-لا لا أريد فقط أن.....

-مـاذا أخبرينـي فأنـا مثـل أبيـكِ مالـكِ تتلعثمـين وكـأنني غريب

بكيـتُ مجـدداً وقـد ارتميـتُ فـي حضـنه وأنـا أردد ليسمعني

- نعـم يـا عمـاه أنـت مثـل أبـي فاعـذرني علـى حمـاقتي قطع الله لساني قبل أن...

- أهـذا مـا يقلقـك هـوّني عليـكِ فكلماتـك الغاضـبة لـم تضايقني منك

-لكنني أنزعج من كلامي ليتني لم أكن في تلك اللحظة

-إنما كنتِ دعكِ من هذا الآن ولتفكري بمستقبلك

مسحتُ دموعي وعدّلت من جلستي وأنا أفكر

-مستقبلي يا عم ومن أين يكون لي مستقبلاً وما هذا الذي أمامك إلا حاضري

-متشائمةٌ إذاً

- لا لا ولكنني أرى الأمور تصعب وتتعرقل ولا أجد لي سبيلاً للخروج من حالتي تلك

- ما زالت البداية أتتعبكِ البدايات أم أنك تحبين بعد أن فقدتِ أمك وصار الأمر متعلقاً بما تحكمين أن يعود أبوكِ فيجدكِ كما أنت لا بل ازدادت حالتك تدهوراً ويجد أختيكِ على الحال الذي تركككم فيه باستثناء الأعمار فالكل يكبر يا براءة

تذكرتُ تلك المرأة المسنة وأولادها تحت التراب أمامها وتذكرتُ صمودها وإيمانها وهذا الآن أمامي يعطيني درساً آخر

- سبحان الله يا عمي ما أشبه اليوم بالبارحة إذ كنتُ أقول ما تخبرني به لأمي وأجدها تعبت من طول المسير وأنت الآن تلقيه عليّ فأطمئنك يا عمي سأتغير وأحقق هدفي الذي طمحتُ به منذ الصغر

-نعم يا براءة فنحن خُلقنا على أرض الاختبار وسخر الله بعضنا لبعض ليشتد أزره وقد اختارني الله لأكون يدكِ يا ابنتي فاضربي بها حيث شئتِ واطلبي منها أن تخوض بين الرماح فتلبيكِ من فورها

-أشكرك يا عم، عماه أخبرني عنك كيف أنتما هنا فقط أين زوجتك ألم يكن عندك أولاداً غير شام

-لدي ولدين وابنتين واحدة متزوجة لا أعرف عنها شيء منذ اندلعت الاشتباكات في القرية والأخرى شام التي تعرفت إليها أما أولادي فقد استشهدوا بالقصف المدفعي وزوجتي توفيت قبل عشرين عاماً بسبب خطأ طبي أثناء إجراء عمليتها القلبية أما ابنتي شام هذه التي قدمت معي فقد تم قصف منزلنا فأصيبت بالشظايا التي اجتازت النخاع الشوكي في ظهرها وأصابتها بالشلل.

استمعتُ إليه بدهشةٍ طاغية

ما هذا أهذا سيناريو لأحد أفلام الرعب أم أنها روايةٌ تحت عنوان بين الركام

-ستلتقي يا عماه بأختها إن شاء الله أما الذين ماتوا فقد سبقونا للجنة أليس كذلك

-بلى إن شاء الله في الجنة

ثم أمسك يدي وأدخلني الخيمة مرةً أخرى ونظرتُ لشام للمرة الأولى حيث كانت فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها تمتلك عيوناً واسعة لونها كَلون

البحر تتوسط وجنتيها حمرة وردية تبدو وكأنها القمر إذ ابتسمت قائلةً تفضلي يا براءة

-اقتربت منها وأمسكت يدها لأشكرها على عطائها ووجودها جانبي

-أخبركِ أبي أنه هو مَن يقوم برعايتي هنا!!

أومأتُ برأسي لها

-نعم فعل

- الحياة تستمر يا براءة فهنيئاً لمَن طلب العلا فحقق المزيد

-أتأملين بهذا!!

- كلي أمل ويقين بأن مَن أراد بعزيمةٍ وإصرار سيصل

- سنصل إذاً

- إن شاء الله

- أتساعدينني يا شام فقد تهتُ في طريقي

-سنكون معاً لا تقلقي

-إن شاء الله

بعد عدة جلسات عرفتُ أن شام قد درست معهد تمريض فسألتها أن تعلمني بعض الإسعافات الأولية وبالفعل كان ذلك.

عماد

ركلني الجندي بقدمه ذات النمرة الخمسين على ما بدا لي فقد قسمت ظهري نصفين ولم أعد أقوى على الانحناء حيث تصلبت أعصابي وصرتُ قطعةً واحدة بلا مفاصل أو عظام لا أدري فكل شيء يؤلمني وبشدة فدلفتُ للزنزانة رقم مئتان وثلاثة ورافقتني بعض الشتائم المغلّظة لأقع بين أيديهم أولئك الرجال المساجين المساكين بقلوبهم النقية وعزيمتهم القوية فساندوني وأجلسوني بينهم بصعوبة وراح أحدهم يُدعى مازن ينفض الغبار من ثوبي ويمسح جروحي بمنديله حيث أخبرني أنه اتخذ من رداء تخته منديلاً وثوباً وحقيبة تحوي كل أغراضه فقد كان خياطاً ماهراً يُقسم برأسه قبل أن يدخل السجن كما شاركني مازن همومه وسألني أن أقص عليه خبر وصولي إلى السجن

-أعرف أنك متعبٌ ومنهك ولكنني أحب أن أتعرف عليك وتفتح لي قلبك المهموم فقد مررتُ بنفس اللحظات وعشتُ مشاعرك ذاتها

-أحقاً أم أنك تحكي بالفراغ وكيف تعرف بما مررت وأنت تراني للمرة الأولى حتى اسمي لا تعرفه

-الفراغ..... انظر حولك فنحن بين الجدران الأربعة ربما اختلفت الأحداث ولكن الحال واحد

- اعـذرني ولكننـي مُصـابٌ فـي نفسـي وعـائلتي مـا أصـعب أن يسـوقكَ أحـدٌ إلـى المصـير المجهـول لتبتعـد عن كل مَن عرفتهم وتتعرف على غيرهم

-أعلـم أعلـم، ولكـنهم هكـذا يتلـذذون بتشـتيت شـملنا، لـن أتعبـكَ أكثـر ليسـترح بالـك قلـيلاً وإن لزمـك شـيء أخـوك مازن بالخدمة فلا توفره

-ألـم تسـألني عـن قصـتي إن كنـتَ سـامعاً فـأقص لـك مـا جرى معي

-على الرحب والسعة تفضل أخي

-أنـا عمـاد الياسـين مـن حلـب لـدي زوجـة وأربعـة أولاد منـذ فتـرة استُشـهد كبيـرهم أحمـد فخلـع قلبـي وأخـذه معـه ليبقى عندي ثلاثة بنات

أكبـرهم بـراءة وهـي فـي المرحلـة الدراسـية الإعداديـة كما أن وعد وسلام في أوائل عمرهما

كنـتُ أدرس العربيـة قبـل أن تنـدلع الحـرب فـي حـي الفـردوس وبعـد أن قضـى الله لنـا فـي التهجيـر قصـدنا أي مدينـةٍ أخـرى آمنـة نعـيش فيهـا بأمـانٍ وسـلام ليطمـئن قلبـي علـى زوجتـي وبنـاتي فتكمـل بـراءة دراسـتها وتدخل الجامعة

توسّـعتُ فـي شـرح مسـيرتي رغـم أنـي حاولـتُ الإيجـاز والاختصـار وأنهيـتُ حـديثي ببكـاءٍ طويـل بلّـل لحيتـي فـرقّ قلـب مـازن علـى حـالي وراح يعـانقني كمـا لـو أنـه أخي أو صديقي الذي تعرفتُ عليه قبل سنين

استعدتُ قوتي وغيرتُ نبرة صوتي وأنا أسأله

-كيف وصلتَ إلى هنا

- دعكَ مني فقصتي طويلة لا أريد أن أزيد من همك

-لا لا أخبرني فأنت رجلٌ طيب يا مازن وأتمنى لو أنني لقيتك في وقتٍ مختلف ولكننا أصدقاء ولو في السجن

-أنا مهندسٌ مدني من عائلةٍ فقيرة تعلمتُ منذ الصغر الكد والتعب فاعتدتُ الأكل من عرق جبيني وحيدٌ لدى أبي وأمي من ناحية الذكور أما الإناث فلدي أربع أخوات واحدةٌ أكبر مني والثلاثة الباقيات أصغر

تقدم والدي في العمر وأنا ابن تسع سنوات بدأت الجلطات القلبية تتوالى لديه

فاضطر أن يعلمني مهنته الخياطة التي عشقتها منذ نعومة أظفاري

إلا أن كبرتُ وكبرتْ معي خبرتي في ذلك المجال فصرتُ خياطاً مشهوراً عند أصحاب أبي ومعارفه ثم توسعتْ دائرة الزبائن لتضم الريف "عندان" بأكمله وهذا ما ساعدني في التخفيف عن أبي من ناحية العمل المتعب ومصاريف البيت وما يلزمه

وبعد فترة من العمل دخل عدة عناصر دكاني وسحبوني إلى هنا دون أن يخبرني أحد بالسبب

- إذاً أنت هنا من مدةٍ قصيرة!!

-لا لا لـم تكـن قصـيرة ربمـا تعتقـدها هكـذا ولكنهـا أربـع سـنوات أي ثمانيـة وأربعـون شـهراً فـي أول الأمـر مـع كـل ليلـةٍ تنقضـي كنـتُ أعـاني وأكتئـب حتـى تعـودت علـى الحال الجديد هذا

- صدقني لا أخاف من شيء ولكن

أكثر ما يرهقني هو التفكير بمريم والأولاد

تُرى كيف حالهم!!

أين ذهبوا!!

كيف يعيشون!!

كثرت تساؤلاتي وما من مجيب

- سـترجع لهـم عمـاد القـوي البطـل الشـجاع سـترجع وتلقاهم بانتظارك

- أحقـاً هـذا !!!آاااه يـا مـازن لـو تعـرف ابنتـي بـراءة كـم حلمـتُ بخروجنـا وعيشـنا بسـلام كـي تحقـق حلمهـا الكبيـر فلـديها مـن الطموحـات مـا لا تجـده عنـد غيرهـا كمـا أننـا فضّـلنا أن نحفزهـا ونشـجعها علـى المشـي قـدماً حتـى الوصول إليه

-ربما أنت هنا لتصل فهذه الأقدار يا عماد

لو اطّلعنا على الغيب لما اخترنا إلا حاضرنا

فربـك لـن يختـار لنـا إلا الخيـر المناسـب الـذي يـراه هـو لا نحن

-ونِعم بالله سأنهض لصلاة العشاء

-انتظرني كي أتوضأ

-تتوضأ كيف وقد عرفتُ أن الماء هنا ضئيل جداً!!

-يسمحون لنا بأخذ قدراً قليلاً من الماء كل بضعة أيام لقضاء حوائجنا فاعتدتُ أن أترك منه للوضوء.

بدأتُ بالتأقلم مع وضعي الراهن إلا أنه قد توجب عليّ العمل فكل شيءٍ هنا يُشترى بالمال ما عدا الحرية

وقد اعتدتُ مهنة التدريس تلك لم أكن أعرف بأي مجالٍ آخر

سوى ما شابه فرعي الجامعي كالكتابة والتنقيح والشرح

وكلها لا تدر عليّ بالمال فلا أحد يطلبها هنا

في البداية كان جسمي كله مكسر لا أقوى على القيام بأي عمل فأعانني مازن في قضاء بعض حوائجي حيث قاسمني طعامه وسريره حتى ملابسي قد حاكها بيديه مجانياً

إلا أن استردّيت بعضاً من عافيتي واستعدتُ رابطة جأشي فحاولتُ أن أنهض من جديد وتعلّمت منه الخياطة لم تكن بتلك الصعوبة التي ظننتها بل كانت أقل حيث لم تختلف كثيراً عن عالم الكتب والدراسة فإنها تحتاج الدقة والتفاصيل ذاتها وصرتُ أعاونه في عمله وقد خصص قسماً من ماله ليشتد به ساعدي من جديد.

شام

وجـدتُ روح الشـباب وطموحـاتهم كمـا رأيـتُ انكسـار العجـائز وخيبـاتهم فـي بـراءة فحاولـتُ أن أمنحهـا مـا حرمتنـي الحـرب منـه وقطعـتُ علـى نفسـي وعـداً أن أسـاعدها لتقـف علـى أقـدامها بعـد كـل مـا عانتـه مـن فقـدان حيـث أخبرتنـي بتفاصـيل خروجهـا مـن حلـب وصولاً إلى مخيمنا هذا

كـان لنـا درسـاً يوميـاً بـالتمريض فكانـت طالبـةً مميـزة حقـاً مـا أقـبح هـذا الزمـان الـذي أوصـلها لحافـة الهاويـة تباً له من بين الأزمان

وفـي آخـر دروسـنا دخـل أبـي بينمـا كانـت تخبرنـي بأنهـا تخشـى أن تـودي بحيـاة المـريض وتخـاف مـن منظـر الـدم وهـو يسـيل كانـت الـدمعات أسـيرة عينيهـا وحالمـا بـدأت بالكلام عن مخاوفها أطلقت سراحها

-مـا بهـا بـراءة ألا تجتهـد كمـا يجـب إن كـان هـذا يـا شـام أخبريني!

ضحكتُ لمداعبته، براءة وقد ابتسمت بدورها فقلتُ

-بـراءة يـا أبـتِ، طـالبتي الرائعـة وعملهـا الآن لـن يأخـذها إلا لطموحها

وهدفها

ولكنها تملك بعض المخاوف يا أبتي وأراها ستسيطر عليها ولن تدعها تتغلب على أحلامها أكثر من اللازم

-بالطبع ستنجح وترتقي ولكن حلمها هذا لن يتحقق بدروسك فقط لا بد من الالتحاق بمدرسة أليس كذلك يا براءة!!

-بلى أود فعلاً أن ألتحق بمدرسةٍ ثانوية ولكنني أجد في هذا حرجاً كيف أترك عندكم وعد وسلام

- أين المشكلة بالعكس تماماً فأنا أتسلى معهم كما يقضون وقتاً ممتعاً مع شام فيساعدونها في شؤونها

تحمستُ للفكرة لا بد من دراستها بالشكل الصحيح المعتاد وما تدريسي لها إلا للخبرة

-إذاً كما تشاء يا عمي سوف أنطلق غداً لأسجل اسمي في مدرسة المخيم

براءة

استيقظتُ لصباحٍ جديد وبدأتُ نهاراً مستبشراً قلتُ في نفسي: أنتِ رائعة يا براءة وستنجحين أياً كانت المصاعب فأنا متيقنة بأنك ستكونين أجمل طبيبة عرفتها وستجدين صديقاتك وأبيك لن يخذلكِ شيءٌ بعد الآن.

التحقتُ بالمدرسة الثانوية ولحسن حظي كانت السنة الأولى التي قبلت فيها الإدارة بالمرحلة الثانوية حيث كانت في كل عام تكتفي بالمراحل الابتدائية والإعدادية

وصرتُ طالبةً في المدرسة المخصصة لطلاب المخيم ودرستُ مرحلتي الثانوية كلها فيها

فكنتُ بين الدورة التدريبية مع شام والمدرسة وقد حاولتُ أن أوازي بين الاثنين فنجحتُ في الأولى مع القليل من الخوف أخبرتني شام أنه سيتلاشى بمجرد التنفيذ العملي أما الثانية فقد تأخر نجاحي حيث اعتدتُ التأجيل والتمهيل إلى أن اقترب آخر امتحانٍ مدرسي والذي سينقلني إلى الجامعة ولا أريد شيئاً كما أريد أن أحقق حلمي بأن أكون مثلك يا أحمد ذاك الحلم الذي جمعني وصديقاتي حلم أمي وأبي حلم العم موسى وابنته الحبيبة شام سأصير ما كتبه الله لي وسأبلغ غايتي بإذنه

بدأ العد التنازلي لأول مادة متوترة أنا ومتعبة من كل النواحي النفسية والجسدية العقلية والقلبية

في مثل هذه اللحظات كان أبي يبحث عن سعادتي بالمشاوير والترفيه حيث يختار فلماً عربياً أو مسرحية ونشاهدها معاً أما أمي فكانت تطهو لي أكثر أكلةٍ أحبها وتشتري لي ساعتي المفضلة وحقيبةً جديدة رغم أن التي أسميها قديمة يحلم فيها الكثيرون هذا ما تردده دائماً لكنها تشتري لي في النهاية كل شيء في كل وقت. ما زلتُ أذكر استيقاظي باكراً

ونهوضها معي فتنادي براااءة هيا يا حبيبتي الساعة الخامسة والنصف الآن ألا تنهضي

-بلى يا أماه لستُ نائمة بل جلستُ لأدرس

فتأتني بالمكسرات وقطع الشوكولاتة وحين أرفض لقلة شهيتي بقولها

-"العقل السليم في الجسم السليم"

"غذِّ جسمك يتغذّ عقلك"

فلماذا ترفض طبيبتنا المستقبلية غذاءها

-حسناً سأتناول كل شيءٍ تأمريني به

- لا بل يطلبه دماغك ويحتاجه قلبك

-هو ذاك لا أرى فارقاً كبيراً

كل ذلك حتى لا يدع كل منهما للكآبة حظاً مني قبل الامتحان

وبسبب الاكتئاب وشعوري بالغربة ذهبتُ للمادة الامتحانية الأولى وقد درستها جيداً

إلا أنني توترتُ من طرقات حذاء المراقبة ومنظر الطالبة التي سقطت أرضاً بعد أن استلمت الورقة كل شيء استعادته ذاكرتي اللعينة في تلك اللحظة منظر ذاك القبيح الذي ركل أبي ومن ثم اعتقلوه

مشهد صباحي حين ماتت أمي

حتى أحمد مر بي كل شيء حاوطني رغم ذلك كنتُ أكتب أغلقتُ عيوني أكثر من مرة ونفضتُ رأسي لتخرج تلك الذكريات ما هذا وقتها

حاولتُ أن أجر ما تعلمته من شام والعم موسى والمرأة التي فقدت أولادها جميعاً

تذكرتُ وعد وسلام لا سأبذل جهدي فمَن تركتُ ورائي يستحق التعب

صديقاتي أتراهنّ يمتحنون الآن للثانوية أم أنهنّ في وضعٍ أصعب

نادت الآنسة التي تراقبنا لقد مضى أكثر من نصف المدة فمَن انتهى بإمكانه الخروج

-انتهى يا براءة من الامتحان أين أنتِ

-لستُ أدري ما هذا الذي أفعله بنفسي

-حلمكِ يا براءة تضعين اليوم ختمك وتوقيعكِ عليه بمنتصف الطريق

-لقد تعبت وكثرت الأزمات لا لن أقدر سوف أنسحب

- هناك أبٌ في السجون يتخيلكِ باللباس الطبي وصديقاتٍ ابتعدن ظلوا على يقين بأنكِ تقدرين وتنجحين

- أعلم هذا لكنني...

-موسى يا براءة يعتبركِ كابنته وكذلك يعاملك فلا تهدري ثقته فيكِ ولا تخذلي شام التي عرفتيها تلك

التــي كانــت مصــيبتها فــي جســدها وأهلهــا وبيتهــا رغــم ذلك استطاعت

- وأنا سأقدر إن شاء الله

ذاك حديثٌ داخلي منحني شيئاً من المقاومة والإرادة

فأكملتُ الكتابة والدموع قد بلّلت الورقة الثانية

قدم المراقب إليّ

-مــا بــكِ أتعــانين مــن شــيء إن كانــت المشــكلة فــي الإجابات فلا داعي لهذا القلق كله إنه السبب فاحذريه

رفعتُ نـاظري إليـه بكلتـا العينـين البـاكيتين لأجـد أمـامي شــاباً وســيماً بعينــي خضــراوين كحــال الزيتــون وبشــرةٍ سمراء جذابة وشعرٍ بني أجعد فقلتُ له

- سأفعل يا أستاذ

مسـحتُ دمـوعي وألقيـتُ النظـرة الأخيـرة علـى الورقـة وقلبـي يخفـق بشـدة اسـتلمها منـي وخرجـتُ آخـر طالبـة من القاعة

سـارعتُ إلـى دفتـري لأجـدنني مجيبـة علـى سـؤالٍ مغـاير أمـا بقيـة الأسـئلة فـلا بـأس فيهـا غلقـتُ الـدفتر وأجهشـتُ بالبكـاء ليتـكِ يـا أمـي أكملـتِ لـي قصـة الفتـاة الطموحـة التـي لـن تصـل للقمـر حتـى أفقـد الأمـل مـن المـرة الأولـى ولا تمر بي تلك الخيبات

لحق بي الأستاذ نفسه

-بـراءة أنـتِ ذكيـة وورقـة امتحانـك تبـدو جيـدة الترتيـب والخـط الحسـن يسـاعد المصـحح فيعـدل عـن بعـض الإجابات الخاطئة.

ضـحكتُ فـي قلبـي رغـم أنـي لا أشـتهي الضـحك أبـداً مـن أيـن جـاء بالقـانون هـذا أول مـرة أسـمع فيـه ثـم مـا الـذي يجعله يلحق بي ويواسيني أيعرفني من قبل

-لكنني يا أستاذ لا أطمح للنجاح وحسب

-عرفـت ذلـك بنفسـي فأنـتِ تحلمـين بفـرعٍ جـامعي عـالٍ وأهلـك الآن ينتظرونـكِ بأمـلٍ ولهفـة وتظنـين أنـكِ ستذهبين إليهم بالخيبة لذا تكثرين من البكاء

-عذراً أستاذ ولكنني أجدك تعرف داخلي أتعرفني

- لا لـم أعرفـك مـن قبـل بـل عرفتـكِ الآن كمـا أننـي أعـرف طفولتك

-كيف لا بد أنك تمسنا بقرابة

أمـي أم أبـي فـي الحقيقـة يـا أسـتاذ أرى وجهـك مـألوف بالنسبة لي

-ألستِ براءة عماد الياسين

-بلى قد رأيتَ اسمي في الورقة أليس كذلك

- إنـه كـذلك أخيـكِ أحمـد الياسـين وهـذا مـا لـم أقـرأه بالورقة بل عرفته بنفسي

- نعم إنه أخي الكبير

- تبـيّن لـي ذلـك مـن الملامـح المتشـابهة كمـا أنـكِ لـم تتغيرين كثيراً عن طفولتك

- إذاً أنت صديقُ أحمد

لحظـة مـن فضـلك أنـت عمـر الفـاخر الحمصـي كنـتَ تزورنا فتبيت عندنا

- أنـا هـو ...تخرجـتُ مـن معهـد إعـداد المعلمـين والآن تم تعييني موجهاً،

كيـف يفعـل أحمـد كـم اشـتقتُ إليـه أمـا هـو فـلا يسـأل عـن صديقه وأخيه

-لا تعرف إذاً

فقـد استشـهد أحمـد قبـل سـنوات فـي حلـب ونحـن قـدمنا بعد وفاته

وقـع الخبـر عليـه كالصـاعقة فتغيـرت ملامحـه وكـأنني ألقيتُ عليه دلواً من الماء البارد في شهر شباط

-حسبنا الله ونعم الوكيل

براءة انتهى دوامي ما رأيك أن أوصلك للبيت

-إن لم يكن هذا محرجاً

- لا لا هيا دعينا نخرج الآن.

شام

انتظرتُ براءة وقد كان قلبي يغلي من الخوف رغم أنني استرجعتُ معها كل المعلومات قبل أن أنام في ليلة امتحانها ولكنني أخشى أن تضيع بعد فقدان أهلها ويتبخر حلمها في أقاصي السماء.

لا لا براءة ذكية وستبلغ غايتها قلتُ في نفسي ثم ناديتُ وعد صديقتي الصغيرة

- ما رأيكِ يا وعد أن نحضر معاً الفطور ريثما تصل براءة

- موافقة يا خالتي

- وعد ما خالتي هذه لا تعودي لها نادني باسمي قولي شام

- سأفعل يا شام

قالتها بطفولة طاغية وراحت تأتي بالأغراض التي أطلبها

دخل أبي يسألني

-ألم تأتي براءة بعد؟؛ أجدها مُتأخرة.

- لا لا يا أبي في المادة الأولى لا بد من التأخير رهبة الامتحان والقلق جوٌ جديد يحتاج بعض الوقت

بينما نحن نتحدث جاءني صوت سيارةٍ من بعيد قادمٌ إلينا

التفتُ إلى أبي بتعجب وقلت -سيارة هنا في المخيم

- ربما استأجرها أحدٌ من هنا فعندما يقدمون لنا المساعدات يفعل الكثير هذا إذ يصعب حملها عليهم

فتحسستُ ظهري وأقدامي يقصد مثلي

دنت منا السيارة أكثر ووقفت عند خيمتنا لتنزل براءة ومعها شابٌ غريب لم أره من قبل

ركضتْ إليّ تبكي بينما هو وقف عند السيارة فذهب أبي إليه

-كيف كان امتحانكِ يا براءة لم يكن كما تتوقعين أليس كذلك!

-لا أعرف ولكنني وضعت جواباً لسؤالٍ آخر أنا آسفة يا شام

- لا بأس لن تفقدي الكثير من العلامات فلا تقلقي ولمَ تعتذرين

- لأنني خيبتُ أملك والآن أزحتُ الطب من طريقي بيدي هذه

- لا تقولي هذا إن كان نصيبك فسوف تبلغينه

-إن شاء الله

-هيا إلى الفطور أيضاً سؤال

-ماذا

-مَـن هـذا الشـاب الـذي يقـف معـه أبـي وأوصـلك بسـيارةٍ فاخرة

-هـذا صـاحب أخـي أحمـد رحمـه الله وهـو موجـهٌ الآن فـي المدرسة

إذاً اذهبي إليهما وأخبريهما أن يقدما لتناول الفطور

-سأفعل

موسى

حـين نزلـت بـراءة مـن سـيارة ذاك الشـاب شـعرتُ بالـدماء تفـور فـي رأسـي كيـف لهـا أن تفعـل ذلـك تملّكنـي خوفٌ من ضياع مسؤوليتي

ذهبـتُ إليـه فـأخبرني أنـه موجـهٌ فـي مدرسـتها رغـم ذلـك ثمة حلقةٍ مفقودة لا أفهمها جاءت براءة تنادي

- عمي موسى أستاذ عمر هيا أقدما فالفطور جاهز

استجبنا لهـا فأومـأتُ لبـراءة أن تظـل أمـا الشـاب فأدخلتـه الخيمة وأخبرته

-لحظة ونلحق بك

-لا مشكلة خذ راحتك يا عماه

دلف الخيمة واقتربتُ من براءة

- ماذا يا عمي أهناك أمرٌ خطير

- مَن هذا!!

-هذا موجه في مدرستي وصديق أخي

-وكيف تأتين معه وبجانبك بالسيارة أخبريني؟

- لا يا عمي لم يكن غريباً فقد أرضعته أمي مع أخي أحمد فإن أمه قد تعبتْ أثناء ولادتها فظلّت شهراً كاملاً لا تدرّ الحليب وكان بيننا كما كان أحمد رحمه الله إلا أنه أكمل دراسته بحمص حيث انتقلوا إليها وبقينا في حلب فابتعدنا ولكن علاقة أخي معه لم تنقع حتى استشهاده

- اعذريني يا براءة لكنني أخاف عليكِ فإنني الآن بمنزلة أبيك رده الله سالماً

- بل أشكرك يا عمي على حبك ولا أعرف كيف أرد جميلك هذا

-بالنجاح

-سيكون بإذن الله

عمر

دخلتُ الخيمة المتواضعة تبدو أنها نُصبت منذ زمنٍ طويل

لا أعرف أين أنا ومَن هذا الذي حقق معي خارجاً لا بأس سأسأل براءة لاحقاً ظلت مستلقيةً في فراشها تلك الفتاة العشرينية الجميلة التي سحرتني من

اللحظـة الأولـى فتعثـرتُ بالـدخول وكـدتُ أن أسـقط لـولا لطف الله بي وبعدها تلعثمت بإلقاء التحية

فردتْ باقتضاب مما زاد من ارتباكي

حتـى بقيـتُ واقفـاً أمسـك طـرف قميصـي بخجـلٍ كمـا كنـتُ أفعل بطفولتي فقالت

- ألا نتعرف

- أنـا عمـر الفـاخر صـديق أحمـد شـقيق بـراءة وبإمكانـكِ أن تقولي شقيقها أيضاً

- تشـرفتُ بـك وأنـا شـام ابنـة هـذا الرجـل الـذي اسـتوقفك خارجاً

- أهلاً بكِ يا شام

أجد لهجتكِ هذه مألوفة فمن أين أنتم

- وُلـدت فـي حمـص وعشـتُ فيهـا منتصـف عمـري تقريبـاً أما الآخر فأكملته هنا بهذا المخيم

- وأنـا عشـتُ فـي حمـص ودرسـتُ فيهـا فتخرجـتُ منهـا إلى أن جاء فرزي إلى مدرسة مخيمكم

- إذاً أنت مدرس!

- لا إداري، وأنت

- درسـتُ معهـد التمـريض قبـل إصـابتي فأنهيتهـا وتخرجـت وكـان ذلـك كلـه فـي حمـص وبعـد ذلـك شـاءت الأقدار أن تقعدني قذيفةٌ لئيمة بقية عمري

- الحمد لله على سلامتك

- سلمت.

طيلة جلوسي مع شام كانت وعد وأختها تتغامزان لبعضهما حيث أخبرتني شام أنه لم يتبقّ لبراءة من أهلها سوى تلك الطفلتين

فقلتُ باستغراب أين البقية

حينها دخلت براءة ومعها العم موسى والد الجميلة شام

تناولنا الفطور جميعاً ثم عدتُ لعملي وقد وعدتهم أن أكرر الزيارة لما رأيته منهم كما عاهدتُ نفسي أن أقدم لهم المساعدة المادية والمعنوية فقد دخلت شام قلبي رغم وضعها هذا وقد طربتُ لنبضاته الجديدة

عماد

تحسن وضعي كثيراً مع انقضاء السنوات الأولى في هذا السجن المظلم حيث لم أعد أراه بتلك الظلمة وأصبحتُ بفضل الله ومن ثم مازن خياطاً ماهراً.

بينما كنت أفكر في حال عائلتي وأحسب المدة التي قضيتها هنا في السجن فقلتُ

- أتراها دخلت الجامعة

- مَن

ويحي أكنتُ أفكر بصوتٍ مسموع

حتى سألني مازن

- ابنتي براءة

- إن شاء الله فإنها ذكية كما تحدثني عنها ولا شك أنها تخطت مرحلة الغربة

- ذكية ولكنني تركتهم في الباص الأخضر ربما لا يزالون فيه وربما وصلوا الخيام لأننا لا نعرف أحداً خارج حلب إلا أقاربنا في حمص وقد قُصفت هي الأخرى

- تفاءل بالخير يا رجل أيعقل أن تقعد مكتوفة الأيدي ثلاثة سنين

- لا لم تكن براءة التي تفعلها

- تماماً فالمرء لا ينجب إلا مثله

وأنت قد عرفتك شجاعاً قويا وعلى أغلب تقديري فامرأتك مثلك

- مريم صلبةٌ من الخارج أما داخلها فقد صار هشاً ضعيفاً بعد موت أحمد وهذا ما يقلقني

- سلم أمرك وأهلك إلى الله فهو أرحم عليهم منك وما كان باليد حيلة فلا جدوى من الألم

- محقٌ أنت دائماً يا مازن وربما تقول هذا لأنك لم تتزوج بعد

- بعد!!

ما أجملها من كلمة تشي بالأمل

- ولمَ لا ستتزوج بإذن الله وتنجب أطفالاً رائعين مثلك

-إن شاء الله

ولكن تفاؤلي هذا لم يكن سببه أنني عازب

فقد تركتُ ورائي أهلي وأصحابي ومستقبلي ألا يكفي هذا

-بلى والله أنت رائع يا مازن

جاء مدير السجن يطلب ستائر جديدة وأغطية ووسادات

حملة تجديد لكل المواد القطنية

وأخبرنا بأنه بعد فترة سيطلب منا أن نخيط لباساً جديداً لكل سجين فقد اقترب العيد

توجب علينا العمل ساعاتٍ طوال يومياً وكان مازن يؤنسني بكلامه العذب ويغني دائماً كي أصحو من نعاسي الذي سيغلبني بعد قليل لا شك وبالكثير من الأحيان تهرب دمعاتي غصباً عني فبصوته الحنون يمر شريط الذكريات المؤلم

أما أنا فأسرد له القصص وأقرأ عليه من الأشعار التي حفظتها فيسلي بعضنا الآخر.

براءة

أخيراً أنهيتُ امتحان الشهادة الثانوية وسأنتقل بعدها إلى الجامعة كتبت، في بقية المواد بطريقةٍ رائعة

وأستحق العلامات عليها ولكنني أخاف من المادة الأولى

وعندما انتهيتُ من دوام المدرسة والامتحان توجب عليّ العمل فأخبرتُ شام بذلك وشجعتني لذا نمتُ على أمل اليوم الجديد وقد أشرقت شمسه لأذهب إلى المشفى الخاص بمخيمنا

-السلام عليكم أنا براءة الياسين قد سمعتُ أنكم تطلبون ممرضة وأنا أمتلك الخبرة في هذا المجال

- وعليكم السلام حسناً ستخضعين للاختبار أولاً فإن اجتزته وظفناكِ عندنا وصرتِ زميلةً لنا وإلا فاعذريني

- حسناً أنا جاهزةٌ الآن

-إذاً تفضلي معي إلى غرفة المعاينة

لازمته وأجريت اختباراً ورقياً وآخراً عملياً

- وطلبوا مني أن أنتظر في غرفة الاستقبال ريثما يأتونني بالنتيجة جلستُ أنتظر وشعرت أن قدماي ترتعشان فقد توترت كثيرا وبدأ قلبي يخفق بشدة

ماذا لو لم أنجح من أين سأرد دين العم موسى؟

ومن أين سنعيش؟

وهل سأخيب أمل أبي بي سمعت خطوات أقدامه تقترب نحوي ثم توقف فوق رأسي رفعت ناظري إليه فقال

-اذهبي الآن بسرعة

توقف قلبي عن الخفقان وثبتت قدماي لقد فشلت في الاختبار يا الله كن معي ثم أكمل قائلاً

-وارجعي غداً في الساعة الثامنة صباحاً فلدينا عملٌ كثير

وأرفق كلامه بابتسامة أردت التصفيق والهتاف والقفز لكنني تظاهرت أمامه بأنني فتاةٌ عاقلةٌ وناضجة خرجتُ من العيادة وصوت العصافير يزقزق في أذني ها قد خطوتُ الخطوة الأولى وما أجملها من خطوة كانت شام تنظر وصولي أمام البيت أقصد الخيمة وقد ساعدتها وعد في الخروج من أركان الخيمة لتستنشق الهواء العذب

اقتربتُ منها فقالت

-هيا أخبريني بالتفصيل ما الذي حصل كانت إجابتي سريعة ومليئة بالفرح

-لقد نجحت يا شام وغداً سأبدأ العمل ضحكت شام بعمقٍ وفرح

-هنيئاً لكِ يا حبيبتي

في صباح اليوم التالي بدأتُ بالعمل وكنتُ أعمل بطريقةٍ أعجبت الكادر الطبي كله وما زادني خوفي إلا انتباهاً وتركيزاً

بعد شهرٍ من العمل جاءني المدير فأعطاني مبلغاً مالياً وقال هذا مرتبك الشهري وإذا وجدته قليلاً أخبريني فأنتِ تستحقين يا براءة

بارك الله بوالديك على هذه التربية كان كلامه أشبه بكلام أبي لا أعلم لمَ تذكرته اليوم ربما لأنني أصبحت ناضجة وها أنا أعمل ولديّ مرتب كما كان يحلم أن يراني خرجت من العيادة وعيناي مليئتان بالدموع دموع الفرح ودموع الغربة أين فرحة أمي أين ضحكة أبي

أخي أحمد، صديقاتي؟؟؟

كل شيءٍ بعيد.

بينما كنت أمشي في اتجاه خيمتنا المتواضعة ذهبت إلى البقّال واشتريت بعض الاحتياجات الأساسية وأخذتُ هديةً لشام والعم موسى وبشكل مؤكد لم أنسَ وعد وسلام حملتُ الأكياس ودخلت الخيمة فتفاجأت شام

-ماذا في يدك

- لقد استلمت راتبي الشهري

-مباركٌ لنا معاً يا طالبتي

- بارك الله فيكِ مدرستي الغالية

شام

فرحتُ لوضعِ براءة الجديد حيث صارت تعمل في المشفى ممرضةً وانتظرتُ بتلهّفٍ نتيجتها الثانوية

أما الأستاذ عمر فقد زادت زياراته لنا وفي كل مرة يأتي معه بالأغراض غذائية أحياناً ومالية أحياناً أخرى فيقول لا شيء من جيبي.

-تلك منظمةٌ يا عمي تصرف لكم المساعدات وهذه من حقكم

- الساعي للخير كفاعله بوركت جهودك أستاذ عمر

- هذا واجبي

وفي آخر زيارةٍ له طلّ بوجهه المبتسم يحمل خبر النجاح بين عينيه ويرفرف شعره من نسمات مخيمنا

ركض إليّ وكأنني مَن نجحت ونظر في عيني وهو يقول

- نجحت براءة بمعدلٍ ممتاز مبارك لكِ يا براءة مبارك لنا جميعاً

راحت براءة تقفز فرحاً وتحمد ربها احتضنت أختيها بدموع النجاح المنقوص أين أهلها الآن وقد طال الانتظار

-عمي موسى أستأذنك في طلب شام زوجةً لي

والتفت إليّ ما رأيك يا شام أتقبلين بي زوجاً

وكأنــه يحمــل ســكيناً ويزرعهــا فــي صــدري لا أعــرف كيــف أرد عليــه شــاب مثــل جمالــه وأخلاقــه وثقافتــه مــا الــذي يمنعــه فــي أن يتــزوج امــرأةً تناســبه لمــاذا اختــارني دونــاً عن الجميع

فأكمل وكأنه سمع أنفاسي وعرف ما يدور في رأسي

-أحببتــكِ يــا شــام رغــم كــل الظــروف وأتمنــى أن تشــاركيني حلــو الحيــاة ومرهــا فنكــون معــاً اثنــان فــي واحد

نظرتُ في عيني أبي فرأيت القبول والتشجيع لأقول له

- نعــم أقبــل بــكَ زوجــاً وحبيبــاً وأتمنــى أن أليــق بــك وأسعدك

-ستفعلين يا شام

عانقتني براءة بحبٍ ومسرة وراحت تحضر لزفافنا

-ســتتزوجان إذاً قبــل أن يبــدأ العــام الدراســي وأذهــب إلــى الجامعة

لكي أتفرّغ لتحضيرات زفافكم

قال لها أبي

- لا تســتعجليهما يــا بــراءة ربمــا يحتاجــان لفتــرة خطوبــة أطول

فسارع عمر

- لا يــا عمــاه إن لــم يكــن لــديكم مــانعٍ فأنــا أريــد أن نتــزوج الآن

- إذاً فلتجهّز ما يلزمك

شعرتُ وكأنني أحلم براءة في الجامعة وأنا أتزوج من ذاك الشاب الرائع فارس أحلام كل الفتيات

الحمد لله الذي لا يضيع لنا تعباً ولا صبراً

براءة

ذهبتُ إلى المشفى فوجدتُ المدير أمامي

- صباح الخير

-صباح الخير هيا ادخلي وأحضري لنا كوبين من القهوة فلم احتسِ اليوم شيء

-حالاً دكتور

أحضرت القهوة فأعطاني علبةً كرتونية

-ما هذه

- هاتف جوال البارحة بعد خروجكم قدم الكثير من المرضى ولم أستطع وحدي إدارة الموضوع ولا سبيل للتواصل معك فخذي هذا

- لا داعي دكتور أشتري أنا واحداً

-إن لم تقبليه هديةً فأقسط سعره وأقتطعه من راتبك

ولا أريد أي اعتراض

- حسناً شكراً لك

أخذت الهاتف الجوال وشغلته وعملت عليه

عمر

في يوم زواجي من شام وقد كانت براءة مهتمة بترتيب الحفل كما تسميه والتزمت بكل شيء فهذا من مسؤولياتها وقد جاءت الفرصة لترد جميلنا صدرت مفاضلة الأفرع الجامعية وكانت الصدمة حيث درجات براءة لا تؤهلها لدخول الطب البشري وهذا ما نغّص فرحتي إذ لا سبيل لتحقيق حلمها إلا إذا سجلت موازي وكان هذا الهاجس يلازمها طوال الوقت بعد أن قدمت الامتحان كيف أخبرها لا لن أصدمها سأفعل ما بوسعي أولاً وإن لم يبقَ لي مجالاً للمساعدة أخبرها

ذهبتُ فوراً إلى المشفى الذي تعمل فيه

وسألتُ عن الإدارة فأشار لي موظفٌ على مكانها

- السلام عليكم أيمكنني الدخول!

- وعليكم السلام تفضل

- دكتور سأتحدث فوراً أنا قريب براءة التي تعمل عندكم والآن قد صدرت نتائج الأفرع الجامعية وكان عليها أن تسجل موازي أو تُحرم من حلمها وأنتم تعرفون أكثر مني خبرتها فقد عملت عندكم فترةً طويلة

- تطلب مني أن أدفع أقساطها الجامعية، براءة ممرضة رائعة بالفعل ومجتهدة في عملها وما تفوقها إلا ارتقاءً لنا ولكنّ هذا صعبٌ جداً فالأطباء والممرضين عندي كثر كما أن المشفى الذي تراه أمامك الآن يتطلب الكثير من رواتب وأجهزة و ...

فقاطعته

- لا يا دكتور لا أطلب هذا فقط أريد منك أن تمنحها شهادة خبرة بالتمريض فأقدمها بدوري للمنظمة الداعمة لمدرستنا لتسدد الأقساط بدلاً منها وبهذا تكون حجّتي أقوى إذ لا غريب في أن تحصل على درجات قريبة من فرع الطب وهناك ملايين الطلاب مَن يقدرون على ذلك كما أن وضعها المادي وسكنها سيساعداني

- سأبذل جهدي لأن براءة تستحق فهي تتعب وتكافح امهلني وقتاً آخر

- جزاك الله خيرا

- وإياك

أخفيتُ الأمر عن الجميع فربما تفشل خطتي هذه وكانت براءة مشغولة بالزفاف ومستلزماته أما شام فقد سألتني

- ألم تظهر المفاضلة بعد غريبٌ أنهم تأخروا

- تحتاج بعض الوقت حتى يدرسوا الأمر بشكل إحصائي

بعد يومين من الزواج اتصل بي مدير المشفى وأخبرني أن الشهادة جاهزة فأخذتها وكان ما دبّرتُ له فأكرمني الله بنجاح الأمر

ركضتُ مسرعاً إليهم

- براءة مباركٌ دخولك الطب بعد أسبوعٍ يبدأ الدوام فجهزي نفسك

- أحقاً!! الحمد لله

- شام ألا تباركين لطالبتك

مسحتْ دموعها

- بلى مباركٌ تفوقكِ يا حبيبتي

فقالت وعد

- إذاً من الآن علينا أن نذهب وحدنا للمدرسة

- نعم فقد كبرتما وصار بالإمكان أن تذهبا دون مرافقة

-سنفعل

أريد أن أدخل الجامعة فقد كرهت المدرسة

فردتْ براءة على كلام أختها

- ستكونين ولكن هذا فيما بعد فللترتيب أهمية في كل شيء

- حتى الدراسة

- كل شيء

أتقـدرين علـى دراسـة المحاضـرات التـي يتلقاهـا طالـبٌ بعمر العشرين وما زلت في الثامنة

- لا لا دروسي وحدها تكفي

- إذاً لا تحتجـي واقبلـي بمراحلـك الدراسـية خطـوة بخطوة

عماد

بعد عشرتي الطويلـة مـع مـازن وقـد أحببتـه حـان الوقـت أن يتركنـي وحيـداً كمـا جئـت وقـد تـم الإفـراج عنـه ودعنـي بالـدموع فأخبرتـه أننـي سـأخرج قريبـاً وسـنظل أصـدقاءً خـارج السـجن كمـا كنـا داخلـه ولكننـي أود أن أخرج من هنا وأجدك متزوجاً وأبناؤك حولك

- سـأكون ذلـك ولكنـك سـتخرج قبـل أن أنجـب الأولاد إن شاء الله

- إن شـاء الله إذاً أنـا الخيـاط الوحيـد مـن بعـدك يـا صاحبي

- لا بل نحن اثنان

أم تظن نفسك ستخلّد هنا

- لا لا سأخرج وألحق بك أينما كنت

- إن شاء الله

وخـرج مـازن مـن خلـف القضـبان ليـرى نـور دربـه الـذي حُـرم منـه لسـنواتٍ طـوال أمـا أنـا فأكملـتُ سـنواتي

السبعة داخل السجن ومن ثم أخرجوني منه وقد عمموا أسماءنا أننا خرجنا من سجنهم لكنهم لم يذكروا إلى أين وكيف يفعلون وقد أخرجونا لجحيمٍ آخر لندخل الأفرع الأمنية مجدداً فتلقيتُ التعذيب ثانيةً وتمنيتُ أن أرجع حيث لقيتُ مازن ولكنها العودة للوراء لم تكن بقيتُ ثلاثة أعوام بين الأفرع أتنقل من واحدٍ إلى آخر وأعاني الظلم ليلاً ونهارا حتى جاء العفو العام فشملني وخرجتُ مع باقي المعتقلين الذين أخلوا سبيلهم

قصدتُ حي الفردوس لكنه محاصراً فاتخذتُ بناءً قريباً منه لأسكن به حتى ألتمس طريق عائلتي أو أدخل الفردوس فهناك بيتي الأول والأخير

حتى مازن لا أعرف أين خرج فإنني عندما طلبتُ منه أن يدلني على مسكنه أخبرني أن حيهم مستهدف ولا شك أن أهله قد تركوه فسوف يبحث عنهم ويسكن معهم أينما كانوا

أجدني خرجتُ من سجنٍ إلى آخر

كيف سأجد عائلتي وأين أبحث عنهم

أرهقني التفكير فرحتُ لموقع الحاجز الذي استوقفنا واعتقلني حيث آخر محطة جمعتنا سوياً وصرت أسأل المارة

باص أخضر قبل عشر سنوات مر من هنا أتعرفون أين وصل؟

فسخروا من سؤالي تقول عشرة أعوام ومَن بقي هنا منذ عشرة أعوام حتى الآن وإن كنا سنسأل كل مارٍ في الطريق عن وجهته فسوف نموت مللاً وسذاجة

كيف أشرح لهم عن أهمية سؤالي وجَدّيته

كيف أصل إلى عائلتي حاولتُ الخروج في كل يوم لأمضي في طريقٍ جديد لا نهاية له

حلقة تكرارية لا تتوقف فما عليّ إلا أن أحاول وأنتظر وأصبر

براءة

يومي الأول في الجامعة كل شيءٍ غريب شعور جديد يجتاحني صرتُ أشعر أنني أقترب من حلمي حاولتُ أن أدرس محاضراتي بالترتيب لن أدعها تتراكم وتقلقني كفى ما مر بي لا مجال لأي عثرةٍ جديدة

وفي السنة الجامعية الرابعة كانت الفرحة الكبرى

حين لمحتُ قائمةً في أسماء المعتقلين الذين أُطلق سراحهم

لأجد اسمه عماد الياسين من بين آلاف الأسماء حقاً إنه أبي

رجعتُ من الجامعة ركضاً حتى وصلتُ بيت شام وعمر حيث سكنّا جميعاً بعد زواجهم

- أبي يا شام أبي

ورحتُ أبكي في حضنها كطفلةٍ بائسة تخلصت من آلامها

- ما به والدك قولي

ركض من خلفها العم موسى وعمر لأقول لهم

- ما زال والدي حياً في ذاك السجن وقد أطلقوا سراحه قبل أيام وسنلقاه غداً

- الحمد لله يا ابنتي

قالها العم موسى بحسرة

- ما بك يا عماه أراك مهموماً

- كيف نصل إليه أو يصل إلينا أيعرف أين أنتم

سكتُ وكأن الفرحة بدأت تنخفض شيئاً فشيئا

- لكنه خرج من السجن وهذه وحدها جديرةٌ بالأمل

- نعم يا براءة ما يهمنا الآن هو خروجه بصحةٍ جيدة والذي أحل القيود أمامه سهلٌ عليه أن يجمعكم

- ما أجمل كلامك يا عمي

قلبت الأيام بعضها بعضاً وأوشكتُ أن أنسى خروجه من السجن لا خبر ولا رسالة ولا أي إشارة تشي بوجوده

وأكملتُ دراستي الجامعية وعملي في المشفى هكذا حتى وصلتُ للعام الأخير في الجامعة تركتُ العمل في المشفى حتى أتفرغ لمشروع التخرج الذي استغرق

معي تسعة شهور وأيام أخيراً قدمتُ مشروعي وقبلوا به بدرجاتٍ عالية وتخرجت

فرحتُ كثيرا فربما نجتمع أنا وصديقاتي ونعود إلى حينا الجميل المتواضع إن شاء الله أخرجتُ دفتر مذكراتي من الحقيبة وعاودتُ قراءة ذاك الحلم الذي دونته مع صاحباتي ليلة أمس وبدقةٍ أكثر قبل عشر سنوات وبدأت بالكتابة

"كان اليوم حافلاً جداً فقد تخرجتُ لتوّي من الجامعةَ ها قد وصلتُ حلمي بطريقٍ طويلٍ كانت الخُطى إليه بطيئة وشوارعه مليئة بالأسلاك الشائكة هدوءهِ المُخيف وسالكه وحيداً إلا من أصحاب القلوب النقية كما هو الحال عند العم موسى وابنته شام أرصفته ظلت متحجرةً ومتعجرفة طوال الوقت وإضاءته خافتة أشبه بأفلام الرعب نعم اجتزته

ولكنني لم أصل بعد إلى ما أريد صديقاتي وأبي انتظروا مني الخطوة الأخيرة سأجتازها وأصل إليكم"

أغلقتُ الدفتر مجدداً وذهبت إلى شام وعمر فأخبرتني أنها تخبئ لي مفاجأةً سأفرح بها

وقبل أن أحزرها سارعت سلام بلهفة لتقول

- ستصير شام أم يا براءة فهي تخبئ طفلاً في بطنها الآن

- ماذا.... مباركٌ يا شام أين عمر أريد أن أبارك له

- بارك الله فيكِ حبيبتي في المطبخ مع أبي

ركضتُ إلى المطبخ فوجدته أمامي

- أنــت هنــا أيهــا الأب المســتقبلي مبــاركٌ عليــك طفلــك القادم

- بارك الله بالطبيبة الجميلة براءة

- عرفت إذاً بتخرجي

- نعم هنيئاً لك تحقيق حلمك ألم أقل لكِ أنك ستصلين

- لكني لم أبلغ غايتي بعد بين صديقاتي وأبي

-ستبلغينها وقد بدأ طريقكِ للمجد

- ماذا قلت يا عماه بدأ...أخفتني

- لـو قلـتُ انتهـى لخفـتِ أكثـر لا بـل بـدأ ورحلتـكِ طويلـة سـتحققين فيهـا الكثيـر مـن الإنجـازات وسـوف تتعثـرين لتقفي من جديد

- أيقف شيئاً في وجهي بعد الآن يا عمي؟

- نعـم فالحيـاة لا تـدع المـرء يفـرح طـويلاً بالمغـانم ولا ينكّد عيشه دوماً بالمغارم

وخُلقنا لنجرب الحالتين

- نعم وسأنجح بالاثنين أليس كذلك

- إن شــاء الله تعلمــتُ دائمــاً أن أســتمد قــوتي مــن العــم موســى حيــث كــان صــريحاً واضــحاً معــي يصــور لــي الواقــع كمــا هــو دون أن يجمّلــه ويمــدّني بالأمــل والتفاؤل.

هنا في الذرى

سارعتْ أمل برفقة زوجها أنس إلى موقع الصحيفة التي تكتب فيها رزان

فاستدلّتْ على عنوان منزلها الذي تسكن فيه مع زوجها حسن.

وطرقت الباب لتقع المفاجأة المُنتظرة

راحت الاثنتان في عناقٍ طويل أنساهما كل الآلام التي ألمّت بهما

وبعد يومين تقريباً كان موعد المُلتقى لتكريم الممرضات والطبيبات الشابات وكان لا بد من إلقاء الكلمة التي حضّرتها رزان قبل شهور وطرق قلبها في هذه المرة وتوترت وقد ملأت الفرحة قلبها برجوع رفيقتها أمل وقد حان وقتُ الإلقاء وحصاد ما زرعت

" السلام عليكم مرحباً بكم أيها الأطباء الأفاضل بكم نصل إلى المعالي ونرتقي ...."

بينما كانت تتحدث وجانبها زوجها حسن وشهد ووالديها كلهم رافقوها لدعمها وتشجيعها أمسكت أمل بيدها وهزّتها تصرخ بأعلى صوتٍ لها رزان انظري براءة رزان..

أمـا بـراءة فقـد غلبـت عليهـا الدهشـة والمفاجـأة برؤيـة صديقتها.

تركـت رزان كلماتهـا معلقـةً علـى مسـامع الحاضـرين وركضـت وأمـل حيـث بـراءة وطـال احتضـان بـراءة مـن تلك الصديقتين الرائعتين حقاً

قالـت أمـل بلهفـة: بقـي علينـا الاجتمـاع مـع شـغف وأراه قريبـاً جـداً كمـا أننـي أرى حلمنـا يـدنو ويقتـرب أيتهـا الطبيبات

ردت عليها رزان بألمٍ وانكسار

- شغف ماتت يا أمل منذ بدأ القصف استشهدت

- لا لا أحدث ذلك فعلاً!!

- بلـى استشـهدت فـي أولـى الضـربات علـى حـي الفردوس

أكملت براءة

- رحمهـا الله كانـت زهرتنـا الجميلـة الفواحـة وسـتبقى كذلك إذ نسعى لتحقيق الحلم الذي جمعنا وإياها

-سنفعل إن شاء الله

قالتها رزان بقناعة ورضوخ للقضاء والقدر

وأكملـت: حلـب مـدينتنا الأولـى والأخيـرة ألا نرجـع لأحضانها أراه الوقت قد حان

- سنرجع إن شاء الله

- بالتأكيد سنعود لبلدنا الكريم

قررت الفتيات الثلاث العودة إلى حلب بعد أن نسقوا مع أهلهم واتفقوا معهم على موعدٍ قريب ليحقون بهم

وجاء يوم العودة إلى حي الفردوس حيث الطفولة والشباب ومولد الحلم

خرجت براءة مع صديقتيها وأزواجهم قاصدين حلب

ودخلت معهم إلى مقدمة حي الفردوس حيث سكن والدها عماد الذي خرج ليعيد المحاولة مجدداً في البحث عن عائلته ليراها أمامه مع صديقتيها

- براااءة أنتِ براءة أم أنني أحلم

- لا براءة يا أبي براءة

الحمد لله على سلامتك يا والدي الحبيب

وذهبت مع أبيها تقص له ما حدث معها منذ مفارقته كما فعل معها وأخبرها عن مازن الصديق الصدوق الذي ساعده لينهض بعد الموت بمشيئة الله

أما أمل ورزان فقد صحبتا زوجيهما إلى منازلهما وأكملوا معاً السير إلى الموقع الذي اعتادوه في الصغر سطح منزل شغف

فكان ملاذهم في الطفولة للسهر والحلم وتأمل النجوم وقد اتفقتا مع براءة لتلحق بهما مع أبيها

بينما كان والد شغف الدكتور نضال يكمل دوره طوال الوقت كطبيبٍ جراحٍ في ألمانيا ولم تسكن همته بموت

ابنتـه الوحيـدة شـغف ومـن بعـدها أمهـا التـي ماتـت غرقـاً فـي البحـر بطـريقهم إلـى ألمانيـا رغـم حزنـه الشـديد عليهما

وبمجرد تحرير حـي الفـردوس عـاد إليـه ببعثـة مـن نقابـة الأطبـاء ليفتـتح مشـفى هنـاك ويمـدوه بـدورهم بالمـال واللوازم.

فـأخبرهم أن أمـرهم ذاك بعيـد المـدى وصـعب المنـال فـي الوقـت الحـالي وقـرر أن يسـتطلع الأجـواء فـي الحـيّ ويرى بنفسه إن تبقى شيئاً من المشفى القديم.

وهـا هـو يرجـع لحلـب وقصـد أولاً سـطح بيـتهم حيـث كانـت شـغف تلعب مـع صـديقاتها وقـد عبقـت رائحتهـا فـي المكان.

صـعد السـلالم ليصـل أخيـراً حيـث كانـت الفتيـات الـثلاث صـديقات شـغف علـى السـطح يتـذكرون ذاك اليـوم الـذي بدأ حلمهم فيه بالتكوّن

ركضت رزان إليه

-الدكتور نضال أم أنني مخطئة

- لا لم تخطئي ولكنني لم أتعرف مَن أنتم

أنتَ الأستاذ عماد الياسين جارنا أليس كذلك

- نعـم أنـا هـو سـبحان الله كيـف تفرّقنـا الأقـدار عمـراً وتجمعنا صدفة

- وأنتِ إذاً براءة أما أنتِ.... أمل أليس كذلك

- نعم يا دكتور

جلس الدكتور نضال يحادثهم ويتفاعلون معه

وقد وصل مازن حي الفردوس يسأل عن صاحبه ولم يكن كأي صاحب بل صحبة السجن تلك خلقت في نفسه شيئاً مغناطيسياً كما فسره جعله ينجذب حيث أخبره عماد عن سكنه

ومن بين الأبواب طرق الباب الذي ستفتحه براءة وكاد أن يسألها عن رفيق سجنه لولا أنها فتنته بسحرها بعينيها البريئتين وطفولتها الطاغية على كل شيءٍ حولها كما أنها لمحتْ من هيئته فتى أحلامها فقد مر بين قطبي شعره سهمُ الحب وتوجه نحوها أما عينيه فكأنها لم ترَ مثلهما من قبل فوقفت تتأمله بارتباكه وحيائه بحزنه وأمله لا تعرفه لكنها أحست أنها عرفته قبل ذلك

ليطل من ورائها والدها

مازن: السلام عليكم عماد أنت هنا يا صاحبي

عماد وعليكم السلام كيف وصلت إلينا يا مازن الحمد لله الذي جمعني بك ثانيةً

مازن: ألا تتذكر حين أخبرتني أنك تسكن في حي الفردوس وقد عرفتُ أنهم أزالوا الحصار عنه قبل أيام فسارعتُ إليك وقد وجدتك

- هذه براءة ابنتي وقد أصبحت طبيبةً كما توقعت.

- سبحان الله فور أن رأيتها شعرتُ وكأنني أعرفها منذ زمن

- وأنا أيضاً راودني نفس الشعور فقد حدثني أبي عنك كثيراً

- نِعم الصديق مازن يا ابنتي رغم فارق العمر الكبير بيننا إلا أنه أشعرني أنني مع أخي أو صاحبي القديم منذ اللحظة الأولى التي جمعتنا

نظرت له براءة نظرةً تشي بالامتنان والإعجاب فردّ عليها بابتسامةٍ تحمل المعنى ذاته

قالت أمل: إذاً براءة عادت لحضن والدها والآن حان وقتي لأنفذ وصية جدتي فأجتمع بمَن فارقتهم من أهلي

فرد أنس: ماذا علينا أن نفعل وقد بحثنا عنهم كثيراً منذ وصلنا حتى الآن؟

- وسنواصل البحث حتى نجدهم

- سنفعل يا حبيبتي

- أنس ما رأيك أن نرجع لحارة جدي ونسأل أصحاب البيوت واحداً واحداً

- أما فعلنا منذ وصلنا ما الفائدة من الإعادة!

- نحاول لا أكثر

وقد عاد زياد ومعه ولديه إلى حارتهم بعد أن فارقوها ليبحثوا عن أمل وأهلها حتى يئسوا فرجعوا حيث يسكنون

ذهب أنس مع أمل لعلّ محاولتهم تلك تنجح هذه المرة طرقت أمل الباب ليفتحه لها شابٌ عمره حوالي خمسة عشر سنة وقال

- أهلاَ مَن أنتِ وماذا تريدين

- أبحث عن عادل وزياد الشاهدي وباقي أهلهم

- من أين تعرفينهم

- أتعرفهم أنت

- زياد الشاهدي يكون أبي وأخيه عادل عمي الشهيد رحمه الله ماذا تريدين منهم

- أيمن أنت أم أنك تقصد عن زيادٍ آخر

-نعم أنا أيمن مَن أنتِ؟

- أمل ابنة عمك.

قلت عادل الشهيد أم أنني أخطأتُ السمع!

- لحظة أبتِ هيا يا أبتاه إنها أمل ابنة عمي عادل هكذا تقول

ركض زياد ليكحّل عينيه بطلّتها البهية

واحتضنها فبكتْ في حضن عمها دقائق طويلة مرت على أيمن وأخته كما لو أنها ساعات

أخبرت كلٌ من رزان وبراءة وأمل الدكتور نضال عن الحلم الجماعي الذي بدأ يتجلى ويبتسم لهنّ فقام بتشجيعهن ودعمهن

فهذا حلم ابنته وسيحققه لها حتى وإن لم تحضره

خرج الدكتور نضال ومعه البقية لينظروا إلى المَشفى وقد هُدم أكثر من نصفه فقرر أن يعيد بناءه وتشغيله بمساعداتٍ من ألمانيا التي أرسلته لينظر في هذا الأمر تحديداً فتستلمه الطبيبات الثلاث صاحبات الحلم الأنيق اللواتي لم يتخلّين عن الهدف رغم قسوة الحرب ومرارها

وبعد عدة شهور شهد حي الفردوس رجوع أهله الذين انتشروا في كل الأنحاء بحثاً عن السلام الذي فقدوه في بلدهم وما وجدوه ثانيةً إلا فيه.

ـــــــ النهاية ـــــــ

هامش: قام في كتابة الرواية ثلاث فتيات في مقتبل العمر وكانت بداية الطريق للثلاثة فما هي إلا ولادة موهبةٍ جديدة؛ بالخطوة الأولى يكثر التعثر فعذراً بعد عذر حتى تشقّ كل واحدةٍ طريقها في الكتابة وتشجيعاً لهنّ من فضلكم.

فخر الكاتب قراؤه.

الفهرس

_البداية.....٦

_حين يصير الحلم أهلاً.....١٢
(أمل)

_بين الحرمان والحرب مسافاتٌ للقلم.....٦٥
(رزان)

_وكان الدواء من حيث كان الداء.....١٣٧
(براءة)

_النهاية.....٢١٩
(هنا في الذرى)

على الضفة الأخرى
عندما تأتيك الرياح بقوة لِتهدم قلبك، وتُبعدك عن الذين أحببتهم فتشعر بأن نورَ هذهِ الجوناء انقلب عليك كما ينقلب السحر على الساحر، لتشع سواداً حالكاً عليك ألا تستسلم أو تيأس فشمس الله لا تغيب وفي الضفة الأخرى لن تجد مكاناً للانطفاء فإما أن تحلم وتسعى أو تحلم وتسعى حيث يشرق الأمل بقلبك كما ينير الحلم عقلك فقط أغمض عينيك ودع خيالك يحلّقَ بعيداً.
روائيون